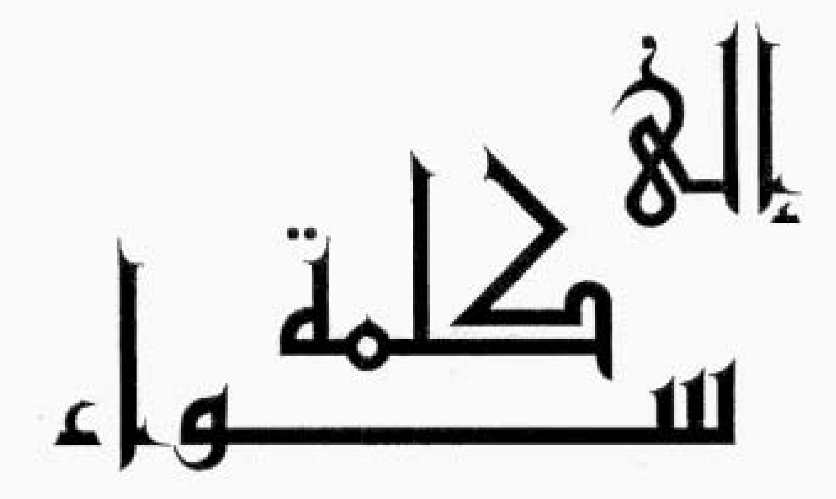
خالد محمد خالد







المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ريحان- عابدين

القاهرة . مصر

Tel: (00202) 7958215-7946109

Fax: (00202) 5082233

Email:
elmokatam@hotmail.com

رقم الإيداع ١٦٧٨١ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولى **I.S.B.N.**

977 - 5732 - 68 - 9

مقدمة الناشر

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام علي سيدنا رسول الله صلي الله عليه وعلي آله وصحبه وسلم.

وبعد...

فهذا كتاب جديد، ينشر لأول مرة، لكاتبنا الكبير خالد محمد خالد عليه رحمة الله، وهو ينتظم ما يزيد عن أربعين مقالا كتبها - غالباً - لجريدة "المسلمون" حوالي سنة ١٩٨٥ وما بعدها تحت عنوان "إلي كلمة سواء".

والواقع أن المقالات التي نشرت تحت هذا العنوان بالجريدة المذكورة ربما تكون أربت علي ثمانين مقالة، إلا أننا لم نتمكن من العثور إلا علي المقالات التي تجدها في هذا الجزء، ونحن نأمل أن نعثر علي باقي المقالات حتى نضيفها إلي هذا الكتاب أو نخصص لها جزءًا ثانيا إن شاء الله تعالي.

ولذلك فإننا نرجومن يعثر علي أي من المقالات المفقودة أن يبعث إلينا بصورة منها نشراً للعلم، ومحافظة علي تراث مهم لواحد من أكبر كتاب الإسلام ومفكريه في العصر الحديث.. والله سبحانه وتعالي يوفق إلي ما فيه الخير والصلاح.

نبذة عن حياة المؤلف

خالد محمد خالد (المتوفى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م)

كان مولده يوم الثلاثاء ٢٧ رمضان سنة ١٣٣٩ من هجرة النبي ﷺ الموافق ١٥ يونية سنة ١٩٢٠ ميلادية، في " العدوة " إحدي قري محافظة الشرقية بمصر، والتحق في طفولته بكتاب القرية، فأمضي به بضع سنوات، حفظ في أثنائها قدراً من القرآن، وتعلم القراءة والكتابة.

ولما عقد والده- الشيخ محمد خالد- عزمه علي أن يلحقه بالأزهر الشريف، حمله الي القاهرة، وعهد به إلي ابنه الأكبر "الشيخ حسين" ليتولي تحفيظه القرآن كاملا، وكان ذلك هو شرط الالتحاق بالأزهر في ذلك الوقت.

أتم حفظ القرآن كله في وقت قياسي وهو خمسة أشهر كما بين ذلك مفصلا في مذكراته "قصتي مع الحياة" – ثم التحق بالأزهر في سن مبكرة، وظل يدرس فيه علي مشايخه الأعلام طيلة ستة عشر عاما حتى تخرج فيه، ونال الشهادة العالية من كلية الشريعة سنة ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م، وكان آنذاك زوجا وأبا لاثنين من أبنائه.

عمل بالتدريس بعد التخرج من الازهر عدة سنوات حتى تركه نهائياً سنة ١٩٥٤، حيث عين في وزارة الثقافة كمستشار للنشر، ثم ترك الوظائف نهائياً بالخروج الاختياري علي المعاش عام ١٩٧٦.

وبُذلت له عروض مغرية كثيرة لنيل وظائف قيادية في الدولة، سواء في رئاسة جمال عبد الناصر أو أنور السادات، فكان يعتذر عنها، ورفض عروضاً أخري كثيرة لأسفار يسيل لها اللعاب، وآثر أن يبقي في حياته البسيطة المتواضعة التي يغلب عليها الزهد والقنوع [1].

---

(١) انظر "قصتي مع التصوف" لخالد محمد خالد نشر دار المقطم للنشر والتوزيع بالقاهرة.

وقد تقلبت حياته في أطوار متعددة، من حفظ مبكر وسريع للقرآن الكريم ، إلي طالب نابه بالأزهر الشريف، إلي شاب متعطش للمعرفة، تواق إلي أنواع الفنون والآداب والثقافات، إلي منغمس في السياسة مشغول بها، إلي خطيب بارع تهز خطبه السياسية أعواد المنابر، ثم إلي واعظ تغمر دروسه وخطبه القلوب بنشوة الإيمان، إلي عابد مشغول بالآخرة ، وصوفي مشغول بربه ، وهكذا .. وقد شرح ذلك بالتفصيل في مذكراته التي كتبها وجعل عنوانها " قصتي مع الحياة ".

وفي سن مبكرة التقي بشيخه المربي الكامل الشيخ محمود خطاب السبكي إمام أهل السنة ومجدد رواق الإسلام- كما وصفه هو- وكان أعجوبة من أعاجيب الزمان، وشاهدا علي ما يفيض الله علي أوليائه وأحبابه من واسع فضله وعطائه (١).

وصفه بقوله: " إن وصفه لمن الأمور الصعبة، والحديث عنه بقدر ماهو شهي وندي... يوقع الكاتب في حيرة .. وهكذا يكون شأننا مع أنبياء الله المرسلين... ومع أوليائه المقربين.. فنحن ننشق عبيرهم الذي يتضوع بهاء وعطرا... ونتقلب في نعماء ما آتاهم الله من نور وهدي وحكمة... بيد أن الاقتراب منهم يفرض علينا من التبعات مالا نطيق... والحديث عنهم، وتفسير مواقفهم، أمر يعسر تناوله إلا علي من يجعل الله عسره يسراً " (٢).

وكما كانت حياته في بواكيرها كالنهر الذي تجيش مياهه بالفيضان، وتتقلب في تدفق وعنفوان، وكلما اقترب من البحر هدأت أمواجه، واطمأنت مسيرته، حتى إذا امتزج بماء البحر صار له هدوؤه وشموله واتساعه.

وجاءت مؤلفاته الرائدة كذلك، بدأت ثائرة متدفقة .. وانتهت إلي الرسوخ واليقين... وفي كلها كان مخلصا، لا يبتغي بأي منها عرضا من أعراض الدنيا.

بل لقد جاءته الدنيا تعرض نفسها عليه من أوسع أبوابها، فأوصد دونها بابه.

---

(١) انظر قصتي مع التصوف.

(٢) من مقدمة الكتاب " في صحبة الشيخ محمود خطاب إمام السنة وقطب الأقطاب " للأستاذ توفيق أحمد حسن، تقديم / خالد محمد خالد دار المقطم بالقاهرة.

ومثال علي ذلك أن جمال عبد الناصر ورفاقه في مجلس قيادة الثورة كانوا قد قرأوا كتبه قبل الثورة، وتحمسوا لها لدرجة أن عبد الناصر كان يشتري منها – من جيبه الخاص – مئات النسخ ويوزعها علي زملائه الضباط [1]، ومع ذلك لما قامت الثورة لم يرد أن يستفيد منها، وكانت فرصته في ذلك عظيمة، ولكنه بدلاً من ذلك وقف ناقداً للثورة موجهاً لها، مطالباً حكومتها بتطبيق الديمقراطية، فكان صدور كتابه "الديمقراطية أبداً" بعد ستة أشهر فقط من قيام الثورة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢.

وظلت هذه مواقفه من الثورة ورجالها حتى توجت بموقفه الفريد في "اللجنة التحضيرية" سنة ١٩٦١، وفيها انتقد مواقف الثورة من قضايا الحرية والديمقراطية، وعارض ما أراد عبد الناصر القيام به من إجراءات تعسفية ضد من أسموهم – حينئذ – ببقايا الإقطاع، وأعداء الشعب.. بعد أن نزعوا أموالهم غصبا وظلما، ونكلوا بهم بغير جريرة ارتكبوها، فصاروا بعد عز في ذل، وبعد غني في فاقة وعوز، وبعد أمن في خوف، ولا يجدون من يدافع عنهم، أو ينتصر لهم... فكان هو الصوت الوحيد الذي ارتفع في وجه الصمت والخوف، مدافعا عن الحق، طالبا لهم – بدلا من العزل السياسي – " العدل " السياسي، ولما أخذ التصويت في المجلس علي من يعترض علي إجراءات العزل السياسي، كانت يده هي الوحيدة التي ارتفعت في سماء القاعة التي ضمت – يومئذ – ثلاثمائة وستين عضوا [2].

منذ كتابه الأول " من هنا نبدأ " خرج خالد محمد خالد علي الناس ككاتب فذ، وصاحب فكر، ومنافح عن قضايا الأمة.. وبذا تحدد موقعه كمصلح اجتماعي وزعيم فكري تعلقت به جماهير غفيرة من الناس، وأعجبت بكتبه وأفكاره، ليس في مصر وحدها،بل وخارجها أيضا...

وطبع (من هنا نبدأ) ست طبعات في سنتين اثنتين، وترجم في نفس السنة التي صدر فيها إلي الإنجليزية في أمريكا، وكتبت عنه عدة رسائل وأبحاث جامعية ومقالات في أنحاء متفرقة من أوربا وأمريكا..

---

[1] انظر "قصتي مع الحياة" فصل : حوار مع عبد الناصر.

[2] انظر "قصتي مع الحياة" فصل : حوار مع عبد الناصر.

ولكن فطرة المؤلف النقية، ونيته الصادقة جعلاه- فيما بعد- يقول إنه عندما رأي حفاوة أعداء الإسلام بالكتاب أدرك أنه أخطأ فيه.

وهنا يتجلي واحد من مواقفه الشجاعة التي امتلات بها حياته، إذ ظل يفكر فيما دعي إليه فيه من فصل الدين عن الدولة ويقلبه في ذهنه حتى أعلن علي الملأ رجوعه عن هذا الرأي، فلم يخجل – وهو الكاتب الكبير- من أن يعلن انه أخطأ... وراح يصحح ذلك الخطأ بكل قوته.

فلم يترك وسيلة من وسائل إذاعة هذا التصحيح إلا أتاها من مقالات، أو تحقيقات صحفية أو إذاعية أو تليفزيونية ... ثم لم يكتف بهذا كله، فكتب كتاباً كاملاً أعلن فيه تصحيحه لرأيه الأول، وراح يدلل علي أن الإسلام دين ودولة، بل إنه جعل شعار الكتاب هو: " الإسلام دين ودولة.. حق وقوة.. ثقافة وحضارة.. عبادة وسياسة.. ".

وقد خلف-رحمه الله- ثروة علمية كبيرة تربو علي ثلاثين كتابا، غير المقالات والأحاديث الكثيرة التي لم تجمع بعد... وقد نفع الله بأعماله تلك نفعا كبيراً، وتلقفها القراء في شوق، لأنها- ككل أعماله اتسمت بالإخلاص، وتدفقت بالعاطفة الصادقة الجياشة..

وأشهر مؤلفاته، وأكثرها انتشاراً هي الإسلاميات التي جاءت فريدة في بابها من حيث الأسلوب، وطريقة التناول، وأشهرها علي الإطلاق " رجال حول الرسول ﷺ" الذي تحدث فيه باقتدار عن سيرة ستين من أصحاب رسول الله ﷺ، و " خلفاء الرسول ﷺ " الذي ضم بين دفتيه خمسة كتب عن الخلفاء الراشدين:

١- " وجاء أبو بكر ".

٢- " بين يدي عمر ".

٣- " وداعاً عثمان ".

٤- " في رحاب علي ".

٥- " معجزة الاسلام عمر بن عبد العزيز ".

وقد ترجمت هذه الكتب إلي لغات كثيرة في أنحاء عديدة من العالم...

ومن كتبه أيضا: " أبناء الرسول في كربلاء " و " والموعد الله " و " لقاء مع الرسول ﷺ" و " كما تحدث الرسول ﷺ" و " كما تحدث القرآن " و " إنسانيات محمد ﷺ" و "عشرة أيام في حياة الرسول ﷺ" وغيرها..

أما كتبه السياسية و الإنسانية و الاجتماعية والفلسفية فهى عديدة كتب منها ثلاثة كتب في موضوع الديمقراطية وحدها، وهي:

"الديمقراطية أبدا" و " دفاع عن الديمقراطية" و " لو شهدت حوارهم لقلت" .. راجع قائمة المؤلفات في آخر الكتاب..

وكتب –أيضا– مذكراته في كتاب " قصتي مع الحياة "، وقد نشرت لأول مرة في جريدة "المسلمون" السعودية و" المصور" المصرية في آن واحد، وبعد أن تمت طُبعت في جزء واحد في مؤسسة أخبار اليوم، ثم طبعت طبعة جديدة بدار المقطم بالقاهرة.

وكان آخر كتبه "الإسلام ينادي البشر"، وقد أراد له أن يخرج في ثلاثة أجزاء:

الأول: "إلي هذا الرسول ﷺ"

الثاني: "إلي هذا الكتاب" (القرآن)

والثالث: "إلي هذا الدين"

ولكنه لم يتمكن إلا من كتابة الجزء الأول، ثم وافته المنية.

أما عن عادته في الكتابة، فإنه لم يكن يجلس للكتابة– قط– إلا إذا استشعر الحاجة الملحة لذلك– وتكون الفكرة التي يريد الكتابة عنها قد نضجت، وطلبت الظهور، حينئذ يجلس في أي مكان، وفي أي ظروف ويبدأ في الكتابة دون أن يلتفت لما حوله أو ينشغل به... وقد تمضي– أحيانا– من حياته سنوات دون أن يكتب فيها شيئاً لأنه لم يجد ما يهيج في نفسه الدافع للكتابة.

وقد اتسمت كتاباته بأسلوب رشيق بديع، وقدرة فائقة علي التعبير والغوص إلي جوهر الأشياء، ووصفها بيسر وروعة، واقتدار. وكان كثيرا ما يسأل عن السر في جمال أسلوبه فكان يقول:

"إن الأسلوب في الكتابة لا يصنعه شيء إلا رب العالمين"

وقد أورد الدكتور شاكر النابلسي في كتابه الذي كتبه عنه نموذجا من كتابته، وجعله تحت عنوان "عزف لغوي" [١]، وهو العنوان الذي يصف رشاقة أسلوبه وجماله، ونفوذه إلي القلوب.

وكان – رحمه الله – طيب النفس، مستبشرا في عامة أوقاته، تغلب عليه السكينة والتأمل.. وكان غاية في الكرم، غاية في التواضع ونبل الأخلاق، باراً بوالديه وصولا للأرحام مراعياً لحقوق الزمالة والجيران، ساعيا – إلي آخر أيامه – في قضاء حوائج الناس، لا يمل من كثرة قاصديه، ولا يضجر من إلحاح بعضهم عليه حتى في أوقات مرضه، وكان يقول: "تلك زكاة الجاه".

واتسمت حياته كلها بالزهد في المال والمناصب ومظاهر الجاه، وقد استفاض في وصف ذلك من عرفوه وكتبوا عنه [٢] ومن ذلك أيضا مواقفه التي أظهرت ما كان عليه من شجاعة ومن مكارم الأخلاق منها موقفه من الإخوان المسلمين الذين كان قد عارضهم قبل الثورة، ولكنه بعدها، وبعد أن نكلت الثورة بهم ومزقتهم كل ممزق، طُلب منه مهاجمتهم ونقدهم فأبي ولم يخضع لإغراء ولا تهديد قائلاً: " لقد ناقشت الإخوان ونقدت فكرهم وسلوكهم يوم كان بعض قادة الثورة من مجاذيبهم!! ويوم كانوا من القوة بمكان... أما اليوم وهم في المعتقلات والسجون تحت وطأة التعذيب، فقد أوصانا سيدنا الرسول ﷺ ألا نجهز علي جريح ".

وقد نقل الشيخ يوسف القرضاوي تفاصيل هذا الموقف في مذكراته التي نشرها في جريدة "آفاق عربية" (العدد رقم ٥٧٣) [٣].

كان – رحمه الله – محبا للخير، مسارعا إليه، كأنه كان يصف كوامن الخير في نفسه عندما كتب هذه السطور من كتابه "لقاء مع الرسول ﷺ" :

"فإذا سألتني – أيها القارئ – ما الخير؟ أجيبك من فوري : إنه الخير..إنه ذلك الذي يجعل

---

(١) ثورة التراث، دراسة في فكر خالد محمد خالد الدكتور شاكر النابلسي

(٢) راجع "قصتي مع التصوف" ص ٣٧ وما بعدها طبعة دار المقطم بالقاهرة.

(٣) راجع "قصتي مع التصوف" ص ٤٤ وما بعدها. ط المقطم.

الإنسان إنسانا حي القلب، ريان الضمير..وذلك الذي يجعل منك ملاذاً للآخرين، يأوون إليك كما أوي المحرور إلي ظل شجرة، أو كما يأوي الظمآن إلي عين ثرة تفيض بالماء البارد النمير.

هو انعكاس إنسانيتك علي الآخرين، وإضفاء فضائل نفسك البارة الكريمة علي الحياة وعلي الأحياء.

وإن خير ما يصنعه المرء في حياته هو أن تسع حياته الناس رحمة وبراً، ومحبة ووداً "

فكان محبا للناس، لجميع الناس، مستأنساً بهم، متوددا إليهم، متغافلاً عن أخطائهم متسامحاً مع من يسيئون اليه..

باختصار – كان- متخلقا بأخلاق الإسلام، وإن لم يحرص علي أن يكسو نفسه بمظهره... بل له مظهر الرجل العادي- كسائر الناس. أما سلوكه وأخلاقه فكانا يدلان علي عمق إيمان ورسوخ يقين..

وكان يعزو ذلك الي التصوف فيقول في مذكراته:

"ومرة أخري أنحني إجلالا للتصوف، فهو الذي سكب في روحي كل ما روي ظمأها إلي الخير والسكينة والمرحمة والمعدلة، وكل ما بقي لي... من قربات ومغانم ومناعم، ومن فضائل وقدرة وإصرار... فإليه- أولا- يرجع الفضل بين كل الأسباب، وقبل كل الأسباب "

لقد كان – رحمه الله- ممن تشرب روح التصوف منذ يفاعته، ولم يكن تصوفه إلا في قلبه، فلم ينتم إلي أي من طرقه، بل تلقاه مبكراً علي يد شيخه السبكي رضي الله عنه[1].

وكان محبا لأهله أينما وجدوا مداوما علي زيارة أضرحة أهل البيت،وأولياء الله الصالحين.

ومن أقواله المأثورة:

"إني لا أرفض إنسانا لأن فيه خطأ أو اثنين أو عشرة، وأرفض معه بقية فضائله، فقد توجد فيه فضيلة واحدة تزن صلاح مائة عابد".

---

(١) راجع (قصتي مع التصوف) .

"إن الحب هو جوهر الحياة... إن الحب يولد في النفوس طاقة لا تعدلها طاقة أخرى في الكون ولا تقابلها".

"الله سبحانه لا يعيق المهاجرين إليه، والمسافرين إلي رضوانه، بل يجعل لهم الارض مهداً، والسماء سبلاً".

"علي رأس فضائل الحياة وشعار الدين تقف فضيلة الحب"

"لابد للحب كي يصفو ويدوم أن يكون خالصا، صافيا، نقياً، وبكلمة واحدة: أن يكون لله رب العالمين".

"كما ننام نموت.. وكما نستيقظ نبعث.. ومن كان في شك من الموت والبعث، فليعش إن استطاع بلا نوم وبلا استيقاظ ".

"علاقة العبد بربه تتطلب مراجعة مستمرة للتبعات التي تفرضها وللسلوك الذي نحمل به هذه التبعات".

"إننا من طول ما ألفنا بعض الآيات القرآنية، وبعض الأحاديث النبوية، أصبحنا لا نهتز من أعماقنا للسر الباهر الذي تحمله، والحكمة الثاقبة التي تمنحها ".

" إن صحبتنا الصالحين الذين لم تجمعنا بهم خلطة مباشرة تكشف عن حقيقة أنفسنا ومالها من حظوظ الخير والفضيلة ".

"لا تجد مؤمنا إلا حييا، ولا منافقاً إلا عديم الحياء ".

" الإسلام لم يأت ليعلمنا أخلاق الصوامع.. بل ليعلمنا أخلاق المدينة ".

" الكذب مفسدة مطلقة، لأنه سريع النمو، سريع الانتشار، ،وله ضراوة كضراوة الخمر أو اشد ".

" الرياء آفة تمحق الأعمال وتردها تراباً في تراب ".

" التواضع نعمة من الله يهبها لكبار النفوس ".

"الإيمان بالقدر لا يقول لك: نم وانتظر قدرك.. بل يقول: قم واكتشف قدرك ".

وسئل عن القومية العربية فأجاب: " إني لا أعرف شيئا عن القومية العربية، ولكني أعرف أشياء عن الوحدة الإسلامية ".

وقال شعراً في عيد مولد النبي ﷺ:

يـــا عيـــد مولـــده كـــم ذا تواتينـــا ... تشـــدو فتبهجنـــا، تشـــجو فتبكينـــا

قـــل للرســـول إذا مـــا جئـــت روضـــته ... أدرك شـــعوبك قـــد حـــار المـــداوونا

*****

وفاته:

كان- رحمه الله- قد مرض مرضاً طويلاً، واشتد عليه في سنواته الأخيرة، ومع ذلك كان دائم القول:" لا راحة للمؤمن دون لقاء الله " ولم تكن فكرة الموت تزعجه، بل كان كالمنتظر له علي شوق، وقد استعد له، وأوصي بما يريد..

وكان من وصيته أن يصلي عليه في الجامع الأزهر، معهده العلمي، ومرتع صباه وشبابه، وأن يدفن بقريته "العدوة" بجوار الآباء والأجداد والإخوان والأهل..

وجاءته الوفاة وهو في المستشفي يوم الخميس، ليلة الجمعة ٩ شوال سنة ١٤١٦هـ الموافق ٢٩ فبراير سنة ١٩٩٦م- عن عمر يناهز الستة والسبعين عاماً.

اللهم إني قد قلت فيه مبلغ علمي..

ولا يخلو كلامي من أثر حب الولد لوالده..

اللهم لا تكله إلي عمله..

واشمله برحمتك يا بر يا رحيم..

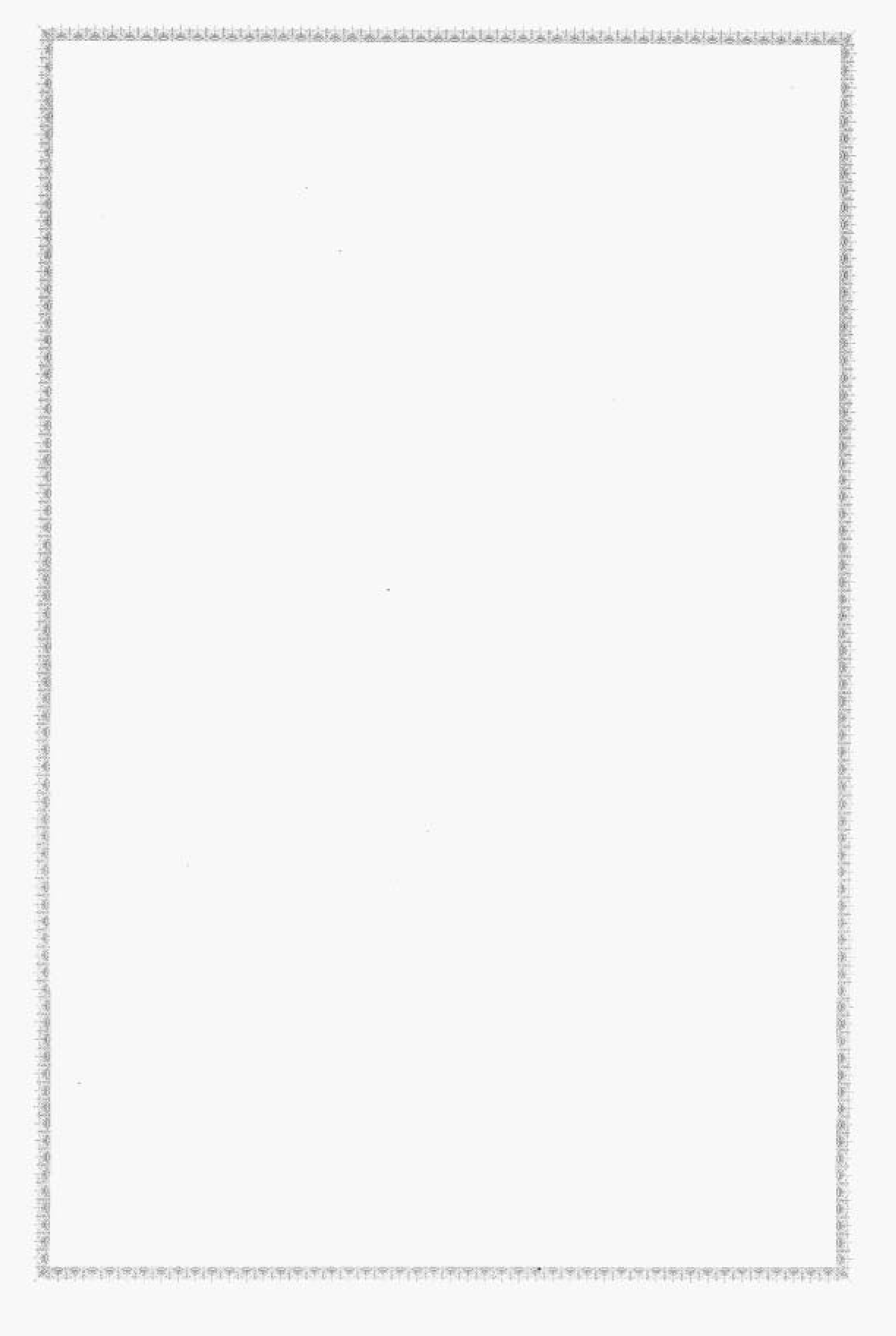
وصل اللهم علي الحبيب الشفيع..

سيدنا محمد..

وسلام علي المرسلين..

والحمد لله رب العالمين..

محمد خالد ثابت

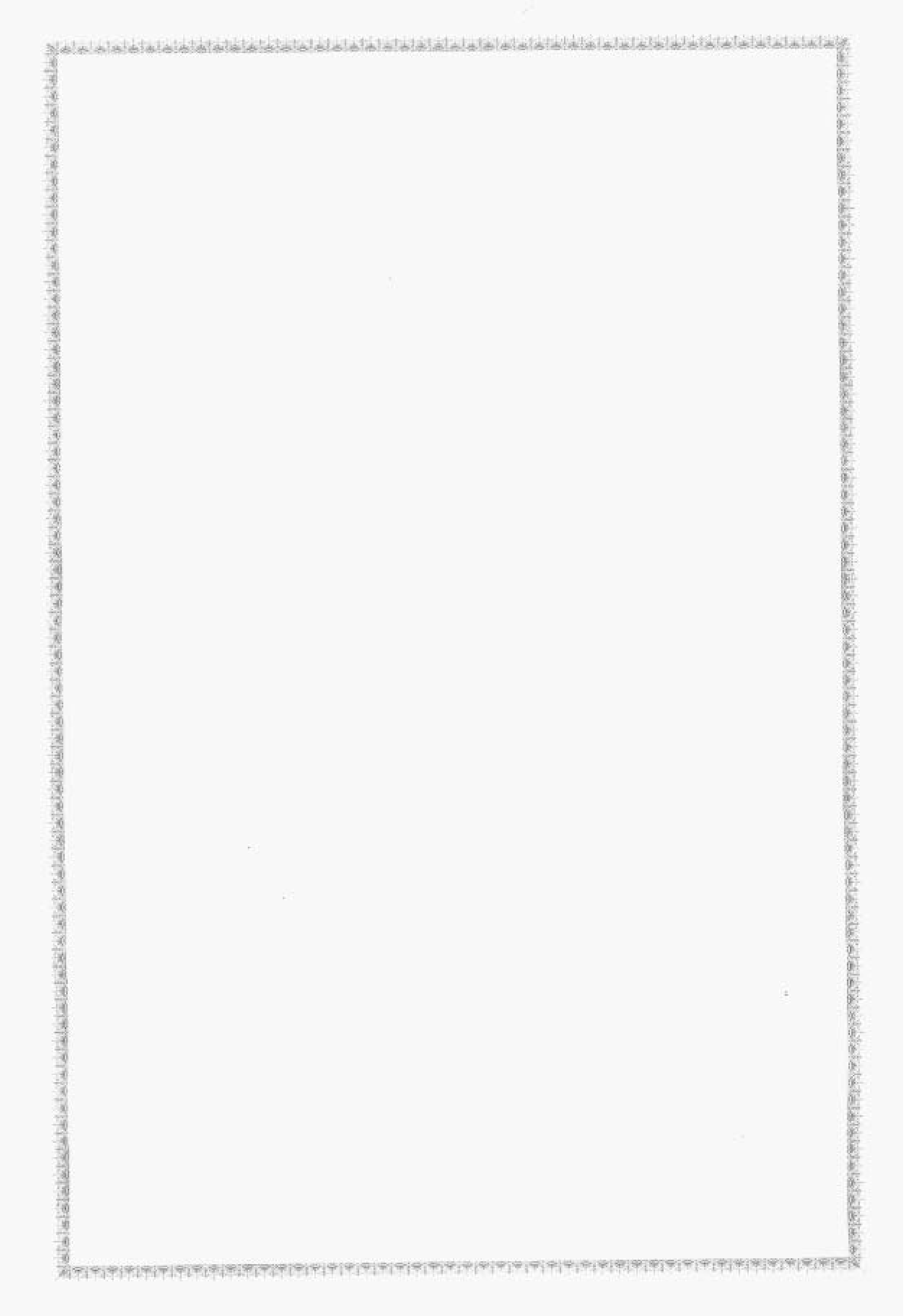


إلى كلمة سواء

مقالات نشرت في الفترة

ما بين سنة ١٩٨١م

إلى سنة ١٩٨٦م



الشوق إلى الله

نحن من الله جئنا وإلي الله نعود وأول ما عرفت أرواحنا المحبة عرفتها في محبة الله وأول ما عرفت الشوق عرفته إلي الله.

هكذا يقول "أهل الله" من أوليائه ومن العارفين به. وإنهم ليذكروننا بالرسول إمام المحبين والمشتاقين إذ كان يدعو ربه بأحب الأدعية إليه فيقول "أسالك لذة النظر إلي وجهك، والشوق إلي لقائك".

والشوق إلي الله نعمته الكبري علي من يصطفي من عباده.

وما دامت أرواحنا- بادئ ذي بدء- لم تعرف الحب إلا له.. ولم تعرف الشوق إلا إليه.. فهو سبحانه الجدير بكل حبنا والجدير بكل أشواقنا. ومهما نحب غيره... ومهما نشتاق الي سواه. فالأمر كما يقول الشاعر:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوي   ما الحب إلا للحبيب الأول

(*) مجلة (المجلة) – العدد ٧٦- ٢٥/ ٧/ ١٩٨١.

والله هو حبيبنا الأول .. فعندما بدأت إنسانية الإنسان وحين حلت فيه النفخة المباركة من روح الله كان الله أول من عرف وأول من أحب.. ثم لما باعدت الخطايا بينه وبين بارئه صار يتلمس الطريق إليه ويدفعه الحنين والشوق إليه بيد أن درجات هذا الشوق تختلف من إنسان لآخر، لان مرد هذا الشوق إلي الروح.. وأكثر الأرواح حنينا إلي الله وشوقا إليه هي تلك التي ولدت ولادة ثانية أخرجتها من مشيمة النفس وظلمه الطبع.. تلك التى ينادي الله أصحابها بقوله : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

وإلي حد ما نستطيع أن نقول: إن الشوق عاطفة متبادلة بين أيدي الله وعباده فنحن نشتاقه وهو يشتاقنا، ونحن نحبه وهو يحبنا، ونقصد بكلمة "نحن" أولئك الذين لم يؤثروا علي الله أحدا، ولا يعصون له أمرا.. وهو دائما يجدهم حيث أمرهم، ولا يجدهم حيث نهاهم.

يقول يحي بن معاذ: "علامة الشوق إلي الله فطام الجوارح عن الشهوات" . والذين تعمر أفئدتهم بهذا الشوق يدركون ما عمي عنه كثيرون، يدركون أن رحمة الله قريبة من المحسنين.. ويعرفون ان مزمع السفر إلي رضوانه لا يكاد يلوح بعزمه وبأشواقه حتى يجد كل مراكب النعمة في انتظاره لتنطلق به في الموكب المجيد والسعيد، فالرب الذي يشدون الرحال اليه، ليس فقط الأول في وجوده.. بل والأول في جوده، قلنا إن الله يحب عباده الصالحين كما يحبونه، ويشتاق إليهم كما يشتاقون إليه، وإلي هذا المعني الكبير يشير الحديث القدسي الذي يقول الله فيه عن عبده الصالح "فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به..إذا مشي إليَّ شبراً مشيت إليه ذراعا.. وإن مشي إليَّ ذراعا مشيت إليه باعا.. وإن أتاني يمشي أتيته هرولة !

انظروا ...إذا أتاني يمشي أتيته هرولة.. أهناك حفاوة وتودد كهذا الذي يعد الله به عباده الذين يحبونه فيحبهم، ويشتاقون إليه فيهرول إليهم؟! إن الشوق إلي الله ضروري لكل حياة صالحة، لأنه عصمة يعصم الإنسان المؤمن من شر الخطايا، وهي الغفلة عن الله. قال صلي الله عليه وسلم: "إذا رأيتم أهل البلاء فسلو الله العافية" ثم قال أحد العارفين في تفسير الحديث أتدرون من أهل البلاء؟ هم أهل الغفلة عن الله.. وأنت قد تذكر الله ولا تغفل عنه تحت وطأة الخوف منه.. ولكن أفضل من ذلك أن نذكره بدافع الرجاء فيه.. ولا شيء يقوي الرجاء في

الله مثل رياضة النفس علي تذكر آلائه تذكرا ينمي في الروح حبه، ويؤهلها بالشوق العظيم إليه وكلما عاش المؤمن في كلاءة الله ، وفي تذكر جلاله كلما كان قريبا منه، وكلما أحس بقربه ازداد شوقه، وتضرم وجده.. وصدق الشاعر إذ قال:

وأبرح ما يكون الشوق يوما إذا دنت الخيام من الخيام

والشوق إلي الله يتطلب منا تجردا عن الهوى وغلبة علي النفس، يقول واحد من كبار العارفين هو أبو يزيد البسطامي: " إذا قلت يا رب أين الطريق إليك؟ جاءك النداء: خل نفسك وتعال "!!

أجل - خل نفسك وتعال.... فالنفس المثقلة بأطماعها وشهواتها حجاب كثيف وكثيف جدا، يعمينا عن الطريق ويحجب عنا الرؤية، ويجذب خطانا إلى الأرض.

إن الشوق إلى الله نزول في حضرته.. أفتريد أن تنزل في حضرة الله دون أن يطرأ عليك جديد يتناسب مع ضآلة العبد وعظمة الرب؟ إن أهون صور هذا الجديد هو تخليك عن نفسك.. " خل نفسك وتعال "...

وإذا تخليت عن نفسك، أي عن شهواتها ورغباتها التي لا تنتهي، تفجرت روحك شوقا إلى الله وحبا له، وسينهار غرور نفسك الكاذب وتتلاشى كبرياؤها الباطلة وستراها علي حقيقتها كطفل فوق ثبج بحر عريض قامت قيامة أمواجه، وليس إلى نجاته سبيل، وفجأة تمتد إليه في هدوء واثق يد حانية وقادرة . تقهر البحر وتذل الموج، وتجعل من الطفل الساذج المرعوب سيد البحر والموج والخطر والهول.

أي أن تخليك عن نفسك من أجل الله سيردها إليك فتية بقدرة الله لألاءة بنوره، متلفعة بجلاله. وهكذا تصدق الحكمة القائلة "من فقد نفسه من أجل الله وجدها"..

سئل صوفي حكيم: هل تشتاق إلى الله؟

فأجاب: إنما يكون الشوق إلى غائب وهو لا يغيب أبدا.

* * *

الأسرة في الإسلام

هذا الموضوع واسع وعريض ومفيض، لا تتسع له بضعة أسطر في مجلة سيارة. ولكن، لنحاول أن نقدم كلمات كأنها مقدمة للموضوع، أو دليل بين يديه.

وللأسرة في الإسلام مكانة مرموقة ومسئوليات فادحة. وهي تغطي كل العلاقات الأسرية بين الزوجين أولا، ثم بين الأبناء والآباء، والأبناء والأمهات، ثم بين الإخوة بعضهم مع بعض، ثم مع الرحم وذوي القربى.

فلا يترك الإسلام صغيرة من هذه الجوانب ولا كبيرة إلا غطاها بتعاليمه ودثرها بتوجيهاته ووصاياه.

ويبدأ الإسلام بحقوق الصحبة بين الزوجين باعتبارهما أصل الشجرة التي سترسل فروعها وأغصانها وثمارها.

والنجاح في الحياة الزوجية تتويج للنجاح في العلاقات الإنسانية كلها. إذ فاقد الشيء لا يعطيه .. ومن يعجز عن العيش في سلام تحت سقف بيته فهو أكثر عجزا عن العيش في سلام

(*) مجلة سيدتي - العدد ٦٨ - الاثنين ٧-١٣ رمضان ١٤٠٢هـ - ٢٨ يونيو - ٤ يوليو ١٩٨٢م .

مع العالم الذي حوله. ولعل هذا جزء من معني قول الرسول صلي الله عليه وسلم عن الزوجة: "هي جنتك أو نارك".

أجل ، فالزوجة التقية، المهذبة المثقفة، الودود جنة الأرض والحياة، جنة لزوجها، وجنة لأولادها وأهليها.

والزوجة السيئة البذيئة الجاهلة نار لا تطاق!!

والرسول الكريم يوزع تبعات الحياة الزوجية علي الرجل والمرأة في تكافؤ ذكي ووثيق. فهو يقول للزوجة: "لو كنت آمرا أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها". ثم في نفس الوقت يقول للأزواج: " خيركم خيركم لأهله . وأنا خيركم لأهلي".

ويقول مناديا الأزواج : " استوصوا بالنساء خيرا ". ويقول: " لا يكره مؤمن مؤمنه، إن كره منها خلقا، رضي آخر" أي أن علي الزوج الصالح ألا ينشد في زوجته الكمال المطلق، فليس للكمال المطلق علي الأرض مكان. ولعله حين ينشد الكمال النسبي يستريح ويريح، فإن كره من زوجته خلقا سرته أخلاق أخر. من أجل هذا قال الرسول : " خياركم خياركم لنسائهم ".

إن وثيقة الزواج فى الإسلام ليست صفقة تجارية أو اتفاقا تجاريا بين اثنين. بل هي ميثاق بين قلبين وحبين وحياتين. هي مهاد لأبناء سيزينون البيت كزهور الحديقة. هي مسئولية متبادلة، ومسئولة عن خلق مناخ صالح وصحي لحياة أسرة بأكملها تمتد عن طريق الأبناء والأحفاد وأبناء الأحفاد إلي ما شاء الله.

ويبدأ الرسول بتعاليمه الرشيدة مع اللحظات الأولي لبناء الأسرة، فيطالب بإزالة الأعنات من طريق الزواج. ويتمثل الأعنات أول ما يتمثل في تضخيم الصداق والمهر مما يئود المتقدم للزواج، وقد يضطره للدين.. ومما يجعل الزيجة صفقة بغيضة بقدر ما هي مبهظة وثقيلة.. مما نشاهده اليوم في بعض البلاد العربية الإسلامية إذ تبلغ المهور فيها حد الإعجاز، ويبدو وكأن الوالد يبيع ابنته، فهو يغالي في ثمنها كما يغالي النخاسون في أثمان جواري الرقيق الحسان !!

ويغيب عنا أن أقلهن مهرا، أكثرهن بركة، كما يغيب عنا قول الرسول عليه السلام: " خير

الصداق أيسره ".

ذهب إلي الرسول يوما أحد أصحابه، وأخبره أنه تزوج، فسأله الرسول عليه السلام: علي كم تزوجتها؟ ويجيب الصحابي: علي أربع أواق. فيقول الرسول مستكثرا ومستنكرا : علي أربع أواق؟ كأنكم تنحتون الفضة من عرض الجبل!!

ثم يضع الرسول اللبنة الثانية في الحياة الأسرية وذلك بحسن الاصطفاء والاختيار. ونسمعه يقول: « تنكح المرأة لأربع: لمالها ، وحسبها، وجمالها، ودينها... فاظفر بذات الدين تربت يداك » !!

بيد أنه مع وصيته بذات الدين، لا يريد للمسلم أن يختار زوجته وهو في غيبوبة من ورعه ... بل يجب أن يختار اختيار اليقظ البصير، جاءه عليه السلام ذات يوم أحد أصحابه يخبره أنه خطب فتاة من الأنصار. فسأله الرسول : هل نظرت إليها؟ فيقول الصحابي :لا . فيقول الرسول: اذهب فانظر إليها، فإن في أعين الأنصار شيئا. ويوضح الأمر في وصيته لصحابي آخر خطب فتاة دون أن يراها: " انظر إليها فإنه أحري أن يؤدم بينكما " .

ولكي تقوم الأسرة وتنهض علي أساس راسخ ومكين تراه عليه السلام يدعو للتكافؤ بين الزوجين. فالناس في سلم الحياة الاجتماعية غير متكافئين.

ومن الخير للحياة الزوجية أن تقوم بين أطراف متقاربة في الوضع الاجتماعي. وهذا من الرسول إدراك صادق وسديد للطبائع الإنسانية والاجتماعية.

ولعلنا نذكر تلك الفتاة التي ذهبت إلي الرسول شاكية تقول: إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته . فقال لها الرسول : إن شئت أمضيت الزواج وإن شئت نقضته..

ولكن الفتاة أجابت: إني يا رسول الله أجيز ما صنع بي، ولكني أردت أن أسألك فتقضي لي، فيعلم النساء أن ليس للرجال من أمرهن شيء .

وهنا نلمح بعدا جديدا لموضوع الكفاءة في النسب الذي جعله بعض الأئمة والفقهاء شرطا من شروط صحة الزواج. أقول: نلمح بعدا جديدا للموضوع فالمستوي الاجتماعي

والعائلي هنا واحد، لأن الزوج ابن عم الزوجة، بيد أنه غير كفء لها بشخصه. وهنا جعل الرسول لها أمر إمضاء الزواج أو نقضه. من أجل هذا قال أمير المؤمنين عمر قولته الذكية الحكيمة: « لأمنعن زواج ذوات الأحساب إلا من الأكفاء ». وهو في هذا ممتثل لقول الرسول عليه السلام: « تخيروا لنطفكم فانكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم ».

ويظن بعض الحمقي أن تشريع الطلاق هدم للعلاقات العائلية، ناسين أن ثمة ظروفا تجعل الحياة الزوجية ثقيلة ومستحيلة. وأن الطلاق عندئذ كآخر الدواء الكي، ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ [النساء: ١٣٠]. وحسب الإسلام في هذا قول رسوله الكريم: " أبغض الحلال إلي الله الطلاق ".

وكيف يشرع الرسول تشريعا يقوض النظام العائلي أو يلحق بالمرأة الأذي وهو الذي يقول: « استوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عوان عندكم. ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك. إلا أن يأتين بفاحشة مبينة »!!

وأنه عليه السلام ليضرب مثلا للذين يسارعون إلي الطلاق وتقويض الأسرة فيقول: " إن إبليس يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة. يجيء أحدهم، فيقول: فعلت كذا وكذا.. فيقول له إبليس: ما صنعت شيئا، ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين زوجته.. فيقول له إبليس: نعم أنت ".

ويضع الرسول أوثق الأسس للعلاقات بين الأولاد ووالديهم.. فيوصي الآباء بأبنائهم، ويوصي الأبناء بآبائهم وأمهاتهم يقول القران الكريم: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ ويقول: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٣]. ويقول الرسول عليه السلام: «لو كان هناك شيء أدني من الأف لنهي الله عنه ».

وتنداح سبيل العلاقات الأسرية حتى تنال الرحم كله رذوي القربي جميعا.

يقول عليه السلام: « الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله ».

وينادي أتباعه الأكثرين قائلا: " يا معشر المسلمين، اتقوا الله وصلوا أرحامكم، فانه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم "!!

ولقد سأل الرسول ذات يوم سائل فقال: " يا رسول الله . إن لي قرابة. أصلهم ويقطعونني.. وأحسن إليهم ويسيئون إلي... وأحلم عنهم ويجهلون علي.. فقال له الرسول: إن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل.. ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت علي ذلك ".

والإنسان الذي ينتهج هذا النهج يكون كأنما يسف الآخرين المل أي له عليهم الحجة وهو أن يبرهم ويسيئون، ويصلهم ويقطعون إنما يخجلهم ويذل غطرستهم ويطفي نار عنادهم وغيظ قلوبهم.

وهذه خير صلات ذوي القربى وأكثرها مثوبة عند الله، فليس الواصل كالمكافئ كما يقول الرسول ﷺ، ولكنه من يحفظ ذمة الله في الأقربين وذوي الأرحام.

هذه إلمامة عابرة وسريعة بها للأسرة في الإسلام، ولن نجد دينا ولا فلسفة ولا نظاما أعطي الأسرة من ذات نفسه ذلك الجهد النبيل للحفاظ عليها وتوقيرها وتمكينها من الثبات وحسن الصحبة والاستمرار .

* * *

يا أتباع محمد من أي البلاد اتحدوا

ألف مليون نحن ..؟ أم ثمانمائة مليون ..؟ أو ستمائة مليون ..؟ أم أدني من ذلك أم أكثر..؟

لقد اختلف العادون والمحصون.. كل يغني علي ليلاه . من أخافته الكثرة من خصوم الإسلام هبط الي القليل، ومن أفزعته القلة ارتفع الي الكثير. ولكن أيا ما تكن الحقيقة فالعبرة بالوفرة لا بالكثرة.. وفي الوفرة البركة. والقرآن يعلم أبناءه فيقول : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة : ٢٤٩) .

وفي العصر الأول للإسلام كانت القلة المؤمنة الصامدة أغلب للكثرة العديدة الجارفة.

ولقد أزعجت الكثرة الهزيلة الهازلة رسول الله صلي الله عليه وسلم حين تكشفت له أستار الغيب فبصر بالمستقبل الذي ينتظر أمته في بعض حقبها فرأي الأمم تتداعى عليها كما تتداعى الأكلة إلي قصعتها. وفزع أصحابه فتساءلوا : أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله...؟ فأجابهم: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من قلوب عدوكم

(*) الشرق الأوسط الخميس ١٨ ربيع أول ١٤٠٤هـ- ٢٢ ديسمبر ١٩٨٣م.

المهابة منكم ، فالكثرة الحسابية لا تغني شيئا عن أصالة النوعية ومقدرتها. وإن ملايين ثلاثة من الإسرائيليين ليعربدون في أرض العروبة والإسلام ويستعلون علي عشرات الملايين من العرب ومئات الملايين من المسلمين.

إن أتباع محمد في كل العصور كثيرون بمحمد، قليلون بدونه.. وهذه هي الحقيقة الغائبة عنا. فما كان الرسول ساحراً ينفخ في بوق فتخرج منه الثعابين تلتف حول رقاب أعدائه!! ولكنه كان مربياً وهادياً يصنع اللبنات السوية الناضجة ليشيد بها بناءه.

كان مجاهداً وأستاذاً في فن الجهاد وفي إعداد الرجال له. ولقد أنجب إسلامه رجالاً لا يدافعون بأسلحهتم عن صدورهم. بل يدافعون بصدورهم عن أسلحتهم!! رجال لا يصبر أحدهم علي مضغ بضع تمرات يقيم بها أوده ويستنكر أن يحول مضغها بينه وبين الجنة فيلقي بها أرضاً، ثم يندفع والسيف في يمينه- بارك الله يمينه- يندفع كالرصاص المقذوف معملاً سيفه المرهف في أعناق أعداء الله من المشركين حتي تبلغه الضربة القاضية وتميل شمسه للمغيب.

لقد فطمهم رسول الله عليه السلام عن كل ما يجعل الكبار صغاراً، وردهم إلي الله علي بصيرة، وآخي بينهم في الله إخاء وثيقاً، ورباهم علي كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ورفع لهم الراية التي سيحملونها إلي المصاير الواعدة، وسارعوا إلي كلمات الله مسارعة أسراب النحل إلي رحيق الزهور، وكانوا في الله إخواناً .. أجل.. كانوا في الله إخواناً .. تلك هي القضية .. وهذه هي العظمة التي أفاءها الله علي جنده – الأخوة الصادقة المحلقة والاتحاد المتماسك الوثيق.

كان نور "محمد" هداهم .. وكان نورهم يسعي بين أيديهم .. عاشوا في مستوى الرسالة التي حملوها، والراية التي رفعوها، وتحققوا وتخلقوا بقول ربهم سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات : ١٠] والتزموا بما توحيه الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [الأنبياء : ٩٢] . كان هناك رب واحد، ووحي واحد، وأمة واحدة وكانوا فطناً. والفطانة لهم سجية. فلم يغلبهم خبيث ماكر ، ولم يقتحم صفوفهم المرصوصة خصم فاجر.

وحين وقع الخلاف والحرب بين الإمام علي ومعاوية واجه الإسلام محنته الكبري.

فالوحدة التي كانت تحرس المسلمين انفرط عقدها، بيد أن الإسلام امتطي ثبج الليالي والأيام والأحداث ممارساً دوره السياسي من الأمويين إلي العثمانيين يفتح البلاد، ويمسلم العباد .. غير أنه كثيراً ما كان يتلفت طوال مسيرته الناصبة باحثاً عن حبيب غاب عن موكبه الهادر.

- أجل، كان يبحث عن الوحدة التي بناها رسوله بقلبه وأعصابه.

كان يبحث عن الذين وحدت بينهم بدر، وأحد، وحنين، والخندق، وتبوك، واليرموك، والقادسية. يبحث عن الوحدة التي جعلت من رعاة الشاة رعاة للأمم، وفاتحين للأرض، وصانعين للحضارة، وهادين من الضلال.

- كان لا يفتأ يلقي علي أتباعه الدرس تلو الدرس بأن الوحدة كانت عصب الحياة للمسلمين الأوائل، وأنها اليوم الضرورة الملحة لكل سعي ناجح.

إنه غداة الحرب العالمية الثانية صفيت الإمبراطوريات القديمة. وظفرت دولة الإسلام باستقلال يكاد يتساوى فيه الكمال والنقصان.

فهل اقترب أتباع "محمد" من الحقيقة ..؟ هل عزموا علي إرجاع "الوحدة" غائبهم المفتقد إلي مكانه من سعيهم ونضالهم..؟

- هل اعتبروا بتاريخهم، حيث كان وراء كل فوز لهم اتحاد وثيق، ووراء كل خذلان فرقة وخلاف..؟!

- أليس كبري المصائب أن نري الفلسطينيين الذين يطمحون إلي رقعة صغيرة من وطنهم السليب يتخذونها سكناً وملجأ .. نراهم وقد اتخذ بعضهم بعضاً عدوا، يتسافكون الدماء، ويستكثرون من اليتامي والأيامي بما يقتلون من آباء وأزواج، ويمارسون من صنوف القتل والقتال أكثرها وحشية ونذالة..؟

أليس من مصائبنا الكبري أن تنسي أفغانستان في زحام تلك المصائب – فكأنها لا تقاتل، وكأنها لا تعاني، وكأنها لا تموت..؟

• لست داعية يأس ولا من الذين يقنطون من رحمة الله، ولا ينتابني ريب في أن شمس الإسلام آخذة في الشروق. ولكن ذلك لا يعني أن نجهل أو ننسي تبعاتنا تجاه المصير.

إننا قادرون علي أن نعود سادة، أو إلي جوار السادة إذا نحن جمعنا صفوفنا، وتوحدت إرادتنا ومشاعرنا ورؤانا.

أتقولون هذه أحلام نائم ورؤى مخدوع..؟ أولوها إذن وفسروها إن كنتم للرؤيا تعبرون!!

نحن ما شئتم من ملايين البشر - ألف مليون أو أدني من ذلك أو أكثر وجزء كبير من بلادنا تكثر فيه الأموال كثرة الرمال !!

وفينا، عقول مقتدرة، ومواهب شامخة تغطي كل مجالات الحياة - يتخطفها الغرب كلما تكشفت له أو تغتالها إسرائيل وهي لا تزال في نضارة الإهاب.

وداؤك فيك وما تشعر .. وما هذا الداء المدمدم الوبيل إلا الفرقة والخلاف، الفرقة بين زعماء المسلمين وقادتهم ورؤسائهم، والتي تنتقل بدورها إلي جماعاتهم وشعوبهم.

إنني لا أزال أذكر القصة التي تلوناها في كتب المطالعة والمحفوظات ونحن صغار .. ولا بأس من تذكرها وذكرها فلعلنا لا نزال صغار!! تلكم قصة الرجل الذي حانت منيته، فجمع أولاده وأمرهم أن يأتوا بعصبة من العصي. ثم أعطي الحزمة لكل واحد علي حدة وأمره بكسرها مجتمعة، فاستعصت عليهم جميعاً، ثم فرق الحزمة المتحدة إلي أعواد متفرقة وأعطي كل واحد منهم عصا وأمره بكسرها، فتهشمت العصي في أيديهم بغير جهد مذكور.

وبرقت عينا الأب المحتضر وقال لأولاده: أرأيتم؟ .. إنكم - مجتمعين - مثل هذه العصي مجتمعة - يصعب كسرها .. ولكنكم - متفرقين - مثلها متفرقة .. ثم أنشأ يقول:

كونوا جميعاً يا بني إذا اعتري ... خطب، ولا تتفرقوا آحاداً
تأبي العصي إذا اجتمعن تكسرا ... وإذا افترقن تكسرت آحاداً

إن كل ما نطمح إليه ممكن بالاتحاد يا رجال

وليس الاتحاد تحية يزجيها بعضنا لبعض ونحن عابروا سبيل .. ولا هو بالعناق والقبلات ينهال بها بعضنا علي بعض في اللقاء وفي الوداع .. ولا هو اجترار لمصائبنا وأحزاننا واجتماع

علي بكاء الأطلال!!

إن الاتحاد أعمق مفهوماً وأبعد غوراً.

وإذا كانت الكعبة تمثل قبلتنا في إقام الصلاة، فالاتحاد يمثل قبلتنا لانتصارنا في الحياة..

إن في المسلمين دولاً غنية متقدمة، وأخري فقيرة متخلفة.

والاتحاد يتطلب أن تتقدم الدول الأعلي بكل عونها للدول الأدني فتنشئ لها وعلي أرضها من المصانع والمزارع والمستشفيات والمدارس ما يسد عوزها وحاجتها.

كان الرسول ﷺ يضرب لأصحابه المثل الأعلي في التكافل وفي الاتحاد الحقيقي فيقول: "إن الأشعريين كانوا إذا أرملوا في غزو أو قل في أيديهم الطعام جمعوا ما عندهم، ثم اقتسموه بالسوية. فهم مني وأنا منهم".

والاتحاد الحق هو الذي تتحد فيه الدوافع والغايات والطاقات .. وتتفاعل تفاعلاً نبيلاً في المجتمع الإسلامي بأسره.

فإذا كانت غايتنا أن نحيا فوق الأرض لا تحتها، وأن نأخذ بأسلوب العصر في بناء حضارتنا، فإن أولي خطواتنا علي هذا الطريق أن تقوم الدول المسلمة المتقدمة بتمكين الامم المتخلفة والمعوذة من تحقيق المستوى الحضاري الذي لا تستطيع أمة اليوم أن تعيش دونه.

هذا معني من معاني الاتحاد الحق وواحد من مفاهيمه، الاتحاد الذي يدعونا إليه رسولنا الكريم فيقول: "وكونوا عباد الله اخواناً".

إن أوربا رغم استغنائها رأت خير حاضرها، وضمان مستقبلها في اتحاد يتناول أكثر جوانب الحياة حساسية ومشقة- وهو الاقتصاد محرك التاريخ- فأنشأت السوق الأوربية المشتركة، وكافحت بريطانيا كفاح المستميت كي تلحق بقطاره، وتصبح واحداً من أعضائه وتحملت كل إهانات ديجول وهو يرفض عضويتها ولكن إدراكها السديد لقيمة هذا التجمع وهذا الاتحاد أبعد عنها اليأس وبث في قلبها الأمل حتي ظفرت بما تريد.

أليس عالمنا الإسلامي في حاجة إلي سوق إسلامية مشتركة ترأب صدعه وتسهم في حل

مشاكله؟ إن الخلافات السياسية الحادة والشريرة الواقعة والناشبة بين بعض ساسته ورؤسائه تصيبنا بالإحباط حين نفكر في هذه المحاولة.

بيد أن هذه الخلافات ليست قدراً مفروضاً علينا. وإنها ما كانت لتبلغ هذا المدى من الضراوة لو لم يكن وراءها دول كبري مستعمرة تخشي وتقاوم كل صحوة للإسلام وهي لهذا تستخدم كل نفوذها في إثارة الشحناء والبغضاء بين زعماء المسلمين ورؤسائهم وهي تخوف وترهب، وتهدد بالانقلابات وبالمؤامرات كل دولة مسلمة تحاول التمرد علي مخططاتها المخربة.

ولكن هذا الوضع جزء من المشكلة التي علينا أن نواجهها ولن يحلها سوانا.

ولأن نقطع من طريقنا عشر خطوات ونحن متحدون، خير وأجدى من أن نقطع ألف خطوة ونحن خزايا متفرقون.

إن مؤامرات الدول الأخري بنا وتخوفها من صحوتنا وهي كما قلنا جزء بل لعلها أخطر جزء في مشكلاتنا وليس الموقف السليم تجاهها أن نعجز عن مواجهتها بل أن نستعين بالصبر والمثابرة والمحاولة علي تخطيها ومجاوزتها.

إن السوق الإسلامية المشتركة – مثلاً- رغم ما سيصادفها من لؤم ومؤامرات لن تكون مجرد نتيجة للاتحاد، بل هي وسيلة كبري له، وسبيل مفضية إليه.

وسيكون لها مشاكلها، كما أن للسوق الأوربية المشتركة مشاكلها. غير أن للمشكلات حلولها ولقد استطاعت السوق الأوربية رغم مشكلاتها أن تقف باقتصادها وبصناعاتها في مواجهة العملاقين في هذا المجال – أمريكا واليابان.

لعلي أذكر أن الملك فهد قد نادي بهذه الفكرة وتبناها، فإلي أين وصل بها ...؟

إنه من أقدر الزعماء العرب علي احتضانها وتهيئة السبيل لها.

- وإن مؤتمر القمة الإسلامي الذي سينعقد في الشهر القادم لقادر علي أن يطرح الفكرة للبحث والنظر. وإنه سيسدي إلي العالمين العربي والإسلامي أعظم الفرص إذا هو جعل هذا الموضوع في متناول تفكيره وعزمه وقدراته.

- إن مجلس التعاون الخليجي، ومجلس الوحدة الاقتصادية العربية يمثلان عملاً قيماً

وانجازاً عظيماً إذا كانا منطلقاً لغاية أبعد وغرض أسمي.

نحن لا ندعو إلي العجلة، ولا نرحب بالطفرة، ولكننا ننادى بحق الاسلام وحق المسلمين في امتداد مظلة الوحدة الاقتصادية حتي تشمل الوطن الإسلامي كله. ولتمض المسيرة خطوة خطوة. ولكن لابد من البدء.

وبعد، فلست أشك في أن أحب زعماء المسلمين إلي الله، وأحناهم علي رحم الإسلام ومصيره، وأخلدهم في تاريخ الرجال، هو من يلقي بكل ثقله وعزمه لجعل الاتحاد بين المسلمين رحماً موصولة وواقعاً أكيداً.

لن ينقذ المسلمين مما يحاك لهم ويراد بهم غير اتحادهم والتقائهم علي كلمة سواء.

إن المسيرة الإسلامية بحاجة إلي جنود مجهولين ورواد باسلين. يولون وجوههم شطر الله، لا يؤثرون علي إسلامهم دنيا عريضة، ولا أطماعاً لاهثة.

وعلي كل مسلم أن يكون دعوة جهيرة ودائبة للاتحاد. وأن يكون بسلوكه خير داع إليه.

لقد أخبر الرسول عليه السلام أن أكبر الكبائر - الشرك بالله، والإضرار بالناس. فهل هناك إضرار بالمسلمين مثل نشر الفرقة بينهم، وتركهم للخلاف يدمرهم ويجعلهم مزقاً وأحاديث..؟ ويقول رسولنا أيضاً: «لا ترجعوا بعدى كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض» فهل هناك أكثر شراً وكفراً من حاكم يسخر شعبه المسلم لقتل شعب مسلم آخر!!؟ إن لأواء الاتحاد كثيرة، وصعوباته كبيرة. ولكن إذا كان يشكل الطريق الأوحد لبعثتنا وخلاصنا فهل من الحكمة أن نقف بلهاء عاجزين أمام الصعاب فلنتقدم في ثبات، ولنحمل تبعاتنا في رشد. ويا أتباع محمد ... من كل البلاد اتحدوا.

* * *

حتى نشكر الله

من أحاديث الرسول العظيم ﷺ، التي حملها إلينا العدول البررة هذا الحديث المتألق:

"من لم يشكر الناس، لم يشكر الله"!!

وهو حديث يتواكب مع أخلاق رسول جاء الحياة ليتمم مكارم الأخلاق.. رسول لا تزال كلماته وتوجيهاته، ومنذ أربعة عشر قرناً، ترسل في الحياة ضوءها وسناها.. وتقبل عليها الأجيال، جيلاً بعد جيل، إقبال أسراب النحل على رحيق الزهور!

لم تشهد العلاقات الإنسانية مبشراً بها، ولا داعيا إليها، ولا حانيا عليها مثل "محمد بن عبد الله" رحمة الله للعالمين.

وهذا التوجيه المضيء واحد من مئات التوجيهات السامقة والشاهقة التي شاد بها ومنها عالماً من الفضائل والمروءات، ومن العظائم والمكارم، ومن الإخاء الوثيق والوفاء الصدوق!! وفي نور هذه التوجيهات السماح تطالعنا بوجهها الباسم هذه الكلمات الوضاءة! "من لم يشكر

(*) مجلة المسلمون – السنة الأولى – العدد الأولى – السبت ١٩ – ٢٥ جمادى الأولى ١٤٠٥هـ ٩-١٥ فبراير (شباط) ١٩٨٥م.

الناس، لم يشكر الله"!!

ولو يعرف الناس ما في المجاملة الرقيقة من إرباء لغبطة الروح، وإذكاء لتوهج الإخاء، وإثراء لمباهج الحياة، ما ضنوا بها، ولا ازوروا عنها ولقدمها بعضهم لبعض في سخاوة نفس وشغف ضمير..!!

لكن الشح الذي تشيع فينا نزعاته الجاحدة، كثيراً ما يحرمنا لذاذات هذه النعمة، ومتاع هذه الفرصة .. بل إن بعضنا إذا جامل الآخرين بكلمة شكر، خرجت من بين شفتيه كأنها أمر كريم .. خرجت "مزكومة" ومتألبة، ومتعالية مع أنه قادر- إذا جنبه الله لؤم الطباع- أن يفيض بها منه قلب ودود، وروح مشعة قد شغفها النبل حباً!!

فلنعود أنفسنا شكر الناس .. لننعش فيهم وفينا عواطف الحب، والود، والحنان.. وحتى نكون إخوة متحابين .. لا شركاء متشاكسين !

كم ستدفع من مالك ثمناً لشكر تزجيه في حفاوة ووجد، وتملأ به قلب أخيك فرحاً أنيساً، وغبطة متهللة..؟! لا شيء ستخسره، ولا مال ستغرمه .. بل سيرتفع بهذا ذكرك، ويتسامى قدرك، وينشرح بك صدر الحياة!! فتذكر دائماً كلمات رسولك: "من لم يشكر الناس، لم يشكر الله".

واستجابة لدعوة الرسول هذه، تعالوا نقدم شكرنا الفيض لأخوين كريمين، لم أر فيهما منذ عرفتهما- من بضع سنين – مجرد ناشرين كبيرين ولا مجرد صحفيين ناجحين.. بل رأيت فيهما – ولا أزال- رائدين عظيمين من رواد الصحافة الجديدة، والرشيدة، تحكمهما قيم، وتقودهما مبادئ يستعان بها في عزم الرجال.. ونبالة الأحرار.!!

تحية لهما- هشام ومحمد علي حافظ- وشكراً من بعده شكر، من بعده عرفان بما ولما بذلاه من جهود شامخة ومضنية لإصدار "المسلمون" ومع صباح كل يوم من أيام بزوغها وظهورها، سيكون لهما – إن شاء الله- وللعالمين معهما مثوبات بعدد كلماتها، وأمجاد يباركها الله.

* * *

كلمات لا تموت

هناك أطنان من الكلمات المسطورة ومن الكلمات الملفوظة تغشت حياة الناس في ألوف من الكتب عبر التاريخ الطويل لبني الإنسان – تتمثل في، أو يتمثل فيها الزبد الذي يذهب جفاء ..!!

وثمة كلمات أخر كالشموس لا ينساها الزمن، ولا يدركها هرم .. بل تظل ترفل في شباب مشرق وريان .. وكأنها روح الربيع !!

وآية خلود هذه الكلمات ويسر عظمتها الآسرة أنك تسمعها اليوم، وغداً، وبعد غد، أو تقرؤها فإذا هي لألاءة طازجة، بينما تكون قد قيلت، أو سطرت من ألوف السنين!!

من هذا الطراز كلمات لا أكاد أذكرها- وما أكثر ذكري لها- حتي أراني وكأني أركب ثبج بحر تتقاذفني أمواجه الهادرة المتواثبة، وتمخر عباب نفسي نشوة رهيبة ورهبة نشوى !! وكأنني أبصر أمامي الرجل الذي صدع بها .. وكأني كذلك أشهد المكان والزمان والمناسبة!!

ولن أترك شوقكم إلي معرفتها يطول .. فها هي ذي: "متي استعبدتم الناس، وقد ولدتهم

(*) المسلمون- السنة الأولي- العدد الثاني – السبت ٢٦ جمادى الأولي – ٣ جمادى الأخرة ١٤٠٥هـ- ١٦-٢٢ فبراير (شباط) ١٩٨٥م.

أمهاتهم أحراراً" ؟؟! يا لروعة القول، ويا لجلال قائله !!

كلمات قيلت من ألف وأربعمائة عام، بيد أنها إذا وضعت في إحدي كفتي ميزان، ثم وضع في الكفة الأخري كل ماغني به الفلاسفة والمفكرون والرواد للحرية لرجحتها جميعاً !!

ثم إنها حين تردد اليوم كالنشيد العبق، ينسينا عبيرها اللبيب وصدحها الطروب، المكان والزمان المناسبة التي قيلت فيها، وتغمرنا عذوبتها ورجولتها بإحساس من يسمعها لأول مرة.. وكأن أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه يجابه بقوارعها عصرنا، والعصور التي سبقته، والعصور الآتية إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها ..!!

لم تخلق الشعوب ليكون نصيبها من الحرية رضاضها وفتاتها !!

ولكي يجعل الله عباده مسئولين جعلهم- في الوقت نفسه وللسبب نفسه- أحرارا.

وحين استخدم "أمير المؤمنين" كلمة "الاستعباد" إنما كان يصف بها لطمة تلقاها علي وجهه فتي مصري سابق ابن والي مصر "عمرو بن العاص" فسبقه.. فأخذته العزة بالإثم ولطم الشاب المصري لطمة، أو حتي لطمات .. أو علا ظهره بضربة من سوطه، أو ضربات .. وقطع الفتي المصري وثباً إلي المدينة المنورة، حيث وضع بين يدي أمير المؤمنين شكاته ومظلمته. ومن فوره، أرسل "عمر" إلي "عمرو": وأفني علي عجل وليأت ابنك معك.. وفي ساحة عدالته وصرامته، ناول المصري سوطاً وقال له اضرب ابن الأكرمين"!" حتي إذا استفرغ غيظ صدره من ابن عمرو، التفت إليه "عمر" قائلاً: أجلها علي صلعة "عمرو" فوالله ما ضربك ابنه إلا بفضل سلطانه.. قال الفتي: لقد ضربت من ضربني يا أمير المؤمنين.. قال "عمر" - سلام الله علي "عمر" - والله لو ضربت عمراً ما كنت لأمنعك، حتي تكون أنت الذي تنزع وتكف ..!! لم ير في بضع لطمات، أو بضع ضربات بالسوط مجرد اعتداء.. بل رآه استعباداً وقال: متي "استعبدتم" ولم يقل متى ضربتم، أو متي اعتديتم .. وتلك عظمة "عمر" رائد الحرية.. وأبي الأحرار ، ولقد كانت هذه الواقعة من حسن حظ الإسلام. بل ومن حظ البشرية لتسمع في كل أجيالها هذا النداء الذي يكاد يكون قدسياً، ينفي عن المستضعفين ما يعانون من كرب وأسي .. ويأخذ بنواصي الطغاة، ويكبح في الجبارين شهوة التفرد، وعزوة الاستعلاء، ووقاحة الاستعباد ..!!

العدل الصارم

كان للرومان معبد يطلقون عليه "معبد الذمة" يذهب إليه من سيشغل منصب القضاء، حيث يقسم في هذا المعبد يمين النزاهة والشرف .. وكان يتوسط أحد جدرانه الشامخة لافتة تحمل هذه الكلمات: "العدل الصارم، ظلم صارم".

ثم جاء عصر عمموا فيه هذه الحكمة، فأصبحت تحتل مكاناً رفيعاً فوق رءوس القضاة في قاعات المحاكم، مذكرة القضاة بالرحمة العادلة، وبالعدل الرحيم، كما أنها كانت تضفي علي القابعين في قفص الاتهام، إحساساً بالأمل، ورجاء في الرحمة.

ولعله كان بين دوافع الرومان لاصطناع هذا الأسلوب، خجلهم الشديد من جرائمهم التي كانت غارقة في البشاعة الإنسانية، بل غير الآدمية !!

ومع ذلك، فهل أغني عنهم "معبد الذمة" شيئاً وهل اللافتة التي استقرت عليها كلمات تناهت في الإنصاف والنبل استطاعت أن تقترب بأباطرة روما وقوانين روما من العدل حتي وهو مجرد من الرحمة..؟

(*) السنة الأولي – العدد الثالث – السبت ٤–١٠ جادى الأخرة ١٤٠٥ هـ– ٢٣ فبراير (شباط) – ١ مارس (أذار) ١٩٨٥م.

لقد تشامخت قوى الشر، تصب بأسها الرجيم علي الناس.

وكم تتلوى الذاكرة ألماً، وتتفجر النفس أسي وكرباً حين نستدعي من التاريخ وقائع العذاب الذي يتعاظم كل تصور وكل وصف، والذي أحال الألوف من المسيحيين إلي "وليمة" تعسة، لو اكتظت حولها. ونهشت وتلمظت بلحومها وجسومها وحوش الغابات التي في الأرض جميعاً، ما كان عذاب الضحايا سيزيد ويربو، وما كانت آلامهم الناجمة ستزيد أو تربو علي العذاب والآلام التي صبها عليهم أولئك الذين يفترض فيهم أنهم كانوا أناساً وبشراً .. "أولئك الذين جعلوا شعار قضائهم: "العدل الصارم، ظلم صارم".

ودائماً- كما يقال- بضدها تتميز الأشياء، وإن يكن الشيء العظيم الذي سنو لي الآن وجوهنا شطره، ليس بحاجة إلي ضد يكشف لنا عظمته وروعته، ويجلي أمامنا سناءه وبهاءه.

ذلكم، هو الإسلام.

لقد قرأت في تاريخ البشرية كثيراً.. وأشهد ما التقيت بدين، ولا بنظام يجعل العدل الصارم ظلماً صارماً، واضعاً ذلك موضع التنفيذ الصادق والدقيق مثلما وجدت ذلك عند سيدنا "محمد" صلي الله عليه وسلم، ولدي دينه الخاتم والعظيم.

لقد كانت الحرب أشد المواقف علي نفسه، وأشقها علي ضميره وإنسانياته، وما خاضها قط إلا والعدل حاديه وحاديها.

ودائماً حين أُسأل: هل الإسلام دين حرب، أم دين سلام؟؟ أجيب: إن الإسلام لم يكن هذا، ولا ذاك.

إنما كان ولا يزال دين "عدل".

فحين يفرض العدل حرباً، فهو دين حرب وجهاد، وحين يفرض العدل السلام .. فهو دين سلام.

ثم ماذا كان منهجه إذا قاتل وحارب؟

هنا تجد هذه الحكمة: "العدل الصارم، ظلم صارم" فرصتها المجيدة، والفريدة.

فإذا كانت الحرب يزجيها "العدل" فإنه عدل بلا قسوة، وبغير إيغال.

انظروا .. "لا تقتلوا شيخاً، ولا امرأة، ولا وليداً، ولا تقتلعوا زرعاً، ولا تحرقوا نخلاً .. واجتنبوا الوجوه، لا تضربوها .. ولا تمثلوا بأحد، فإن الله يكره "المثلة".

هذه كانت وصاة الرسول، ومن بعدُ خلفاؤه، حينما يخرج المسلمون لغزو وقتال.

بل لم يعرف الإسلام في عصر نبيه، ولا في عصر خلفائه ما يسمي بالعدل الصارم .. إنما عرف العدل المستأني، والعدل الرحيم، والعدل النبيل.

حتي في الحدود التي شرعت عقاباً لبعض الجرائم، والتي كان تنفيذها "عدلاً" يحمي به المجتمع نفسه، كانت تتهادي رحمة وحناناً.

حتي أن واحداً منها – وهو حد الزنا – شرع الإسلام في حنو، والحاني في عدالة .. شرع له من الحد والعقاب، ما يجعل أمر إقامته، يحمل موانع تنفيذه.

شهود أربعة، يرون "المرود في المكحلة" عل حد تعبير الفقهاء.

وهكذا لم نجد "حد الزنا" هذا يقام أبداً إلا بإقرار مستحقه واعترافه اعترافاً تلقائياً لم يدفعه إليه أحد .. وحتي في مثل هذه الحالات نجد "رحمة الله للعالمين" صلي الله عليه وسلم يراجع المعترف، ويفتح له منافذ النجاة، ويضع أمامه الاحتمالات الكثر التي تكاد تحضه علي الرجوع عن إقراره واعترافه، لينجو من العقاب الأليم.

وإذا كانت الحدود "عدلاً" فالتماس الشبهات لها "رحمة". هكذا قال الإسلام.

وهكذا قال أصدق القائلين بعد الله: "ادرأوا الحدود بالشبهات".

وحتي قتل الحشرات السامة والقاتلة، وهو "عدل" يحمي حياة الإنسان، نلقاه عدلاً نبيلاً وعدلاً رحيماً، حين يأمر عليه السلام بالإحسان في قتلها، ويخبرنا – مثلاً – أن من قتل "وزغة" من أول ضربة كان له من الأجر أكثر ممن يقتلها في ضربتين .. وأن من يقتلها بضربتين له من الأجر أكثر ممن يقتلها بثلاث ضربات.

ذلك أن قتلها بأول ضربة ينجيها من الألم الذي تسببه عدة ضربات.

أي نبل ..؟ وهل لإنسانيات "محمد" صلي الله عليه وسلم من مثيل؟؟

* * *

الوحي، أم العقل؟

سؤال عجيب .. أليس كذلك؟

بل لعله يبدو سؤالا "استفزازيا" تمغص منه العقول.

ومع ذلك فأنا لا أجد أفضل منه ولا أمثل عنوانا للقضية التي تثيرها هذه العجالة من الحديث.

ولو أن أحدا وجه إليَّ هذا السؤال، لطالبته أن يعيد صياغته... ولقلت له: إن سؤالك بهذه الصيغة يشبه أن نقول متسائلين: "الوحي، أم الوحي" ويشبه أيضا تساؤلنا: "العقل، أم العقل"؟

فإن سألني: ولماذا كان ذلك كذلك؟ أجبته:

لأن العقل وحي.

(*) المسلمون – العدد الرابع – السبت ١١-١٧ جمادى الآخرة ١٤٠٥ هـ ٢-٨ مارس (آذار) ١٩٨٥م.

أخشى أن يكون الأمر قد ازداد تعقدا وصعوبة.

ولكن لا، فسترونه واضحا كضوء النهار.

وبادئ ذي بدء، علينا أن نلاحظ تكرار الحديث عن العقل في القرآن الكريم تسعا وأربعين مرة.. وعن الفقه عشرين مرة.. وعن الفكر تسع عشرة مرة.

أي أنه تحدث عن عقل الإنسان، وعن فقهه وفكره - والثلاثة شيء واحد - ثمانيا وثمانين مرة.

وهو لم يسق هذا الحديث سياقا "رقميا" بل سياقا موضوعيا يتجلي من خلاله دور العقل كمفسر للوحي ومتمم له.. كما تبزغ من خلاله المسئولية التي يحملها الله العقل بهذه المثابة وهذا الاعتبار.

بل حتى في عقائد الغيب، نبصر "القرآن" وكأنه يعاتب "العقل" في لهجة حادة لأنه لا يبذل الجهد الكافي في اكتشاف الوجود الإلهي، عن طريق ما بثه الخالق سبحانه من آيات في السماوات وفي الأرض.

ويستحث القرآن العقل الإنساني كي يمارس دوره كبرهان علي الله، وكدليل للإيمان - ضاربا له المثل بأبي الأنباء سيدنا "إبراهيم" عليه السلام الذي تركه الله بادئ الأمر ليكتشف وجوده بعقله.

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٦-٧٩].

وهكذا قام عقل الخليل "إبراهيم" وفقهه وفكره مقام الوحي، فبدأ عن طريق العقل تعرفه إلي الله وإيمانه بحتمية وجوده... وجعل الله سبحانه مسلك "إبراهيم" هذا حجة علي الذين تتقاصر عقولهم عن إدراك حقيقة الوجود الإلهي، فقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وهكذا هيأ العقل الطريق للوحي.

وحين نتتبع بعض الآيات الكريمة التي تستحث العقل وتحفزه، تتكشف لنا الأهمية التي صورها له القرآن العظيم.

"فالآية التي تقول: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢]. تعني أن الله سبحانه يرينا آياته لنعقلها أولا. وبهذا التعقل يجيء الإيمان".

أي أن العقل هنا يشارك الوحي كمفسر له ومتمم. فإذا كان "الوحي" يتنزل ليدعونا إلي الإيمان فإن العقل يملك الإيماءة الأولي لهذا الإيمان.

والآية التي تقول: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١] تفيد أن الوصايا التي جاء بها "الوحي" تنتظر "العقل" الذي يحولها بفقهه إلي عقيدة وسلوك. كما ينتظرها العقل كيما يستضيء بها في طريقه الرحب المستقيم.

وقول الله سبحانه وتعالي: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]. لم يقل: لعلكم تهتدون، لأن العقل أولا. ثم الهداية ثانيا.

وإذا كان الناس يهتدون بالوحي فهم مطالبون كذلك أن يهتدوا بالعقل وقوله سبحانه حكاية عن خليله "إبراهيم" عليه السلام: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ [الأنبياء: ٦٧] فإذا كان من مهام الوحي زجر المشركين عن

عبادة غير الله. فإنه- أي الوحي- يعتمد علي العقل في تجهيل هذه العبادة المنحرفة والضالة والتي يتوجه بها المشرك إلي من لا يستحقها ولا هو أهل لها.

وكأنما يقول" القرآن " لهم: من غير وحي يكشف لكم سوء ما تزرون فإن العقل الذي منحكم الله إياه لتميزوا به الخبيث من الطيب والزيف من الصدق كاف لإقناعكم بفساد وبضلال ما تصنعون.

والآية الكريمة القائلة: ﴿ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ٥٨]. لعله كان من المتوقع أن تقول الآية الكريمة: " قوم لا يؤمنون" ولكنها آثرت تعليل خطيئتهم بغياب " العقل" وليس بغياب "الوحي" إشارة مبينة منها إلي أن العقل متمم للوحي.

وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ .

وما داموا لم يفقهوا، فهم لم يؤمنوا. أي أن الآية الكريمة تنبئنا أن الله العزيز الحكيم حين أراد عقابهم حرمهم نعمة العقل والفقه. وحرمانهم من هذه النعمة يعني حرمانهم من نعمة الإيمان.

وقول ربنا سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤] .

عظيم أمر هذه الآية. فهنا ذكر أنزله الله علي رسول اصطفاه الله ليبين للناس هذا الذي أنزل لكي يؤمنوا. فإذا الآية تقول: لكي يتفكروا. إذن فالتفكير أولا وبعده يجيء الإيمان.

أهناك دلالة علي تمازج العقل بالوحي في هداية البشر مثل ما تمنحنا هذه الآيات من دلالات؟!

وبعد، فسيكون جهلا فاضحا، وسوء ظن أثيم إذا خرج قارئ- أي قارئ-لهذه الكلمات بحكم غبي يقول: هنا إنكار للوحي أو تحجيم لدوره.

ولهذا القارئ- إن وجد- أقول: لا بل هنا تقديس للوحي، وإجلال للعقل الذي بوأه الله هذه المكانة وأنزله هذا المنزل.

وهنا، دعوة للمسلمين جميعا أن ينادوا العقل ليأخذ دوره في ترسيخ الإيمان وارتياد الطريق، طريق المعرفة، والتقدم والارتقاء.

* * *

أيها السادة

لا تتألوا على الله[1]

الحجاج الثقفي - كما تعرفون - كان فظا غليظ القلب متوحش الضمير.

أكل سيفه من لحوم ضحاياه حتى بشم.. وشرب من دمائهم حتى غص.

وفي حواره مع آخر ضحاياه نلمح زوبعة من إفراطه الجسيم والأثيم في القسوة والتوحش والسعار.

استوقف أمامه "سعيد بن جبير" رضي الله عنه وسأله:

- ما اسمك؟
- قال :سعيد بن جبير.
- قال له: بل أنت شقي بن كسير.
- أجابه: أمي أعلم باسمى منك.

(*) المسلمون - العدد الخامس - السبت ١٨-٢٤ جمادى الأخرة ١٤٠٥ هـ ٩-١٥ مارس (آذار) ١٩٨٥م.

- عاد يسأله: ما رأيك في "علي بن أبي طالب" في الجنة هو أم في النار؟

- قال سعيد: لم أدخل أيا منهما بعد، حتى أعرف من هناك.

- قال: بأي طريقة تحب أن تقتل؟

- أجابه: بالطريقة التي تحبها لنفسك فإن الله لن يدعك تفلت.

- سأله الحجاج: هل لك حاجة قبل أن يطوح السيف برأسك العنيد؟

- قال: نعم، هي حاجة إلي الله.. ثم رفع يديه الي السماء وقال: اللهم لا تمكنه من أحد بعدي... اللهم اجعلني آخر قتلاه.

واستجاب الله دعاء عبده الصالح.. فما هي إلا أيام حتى رقد الطاغية تحت وطأة مرض وبيل.

كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول:

- "لو جاءت كل أمة بخطاياها وجاء بنو أمية بالحجاج وحده لرجحوها جميعا".

سقط الحجاج عليلا ذليلا فاقد الحول منهوك الطول آخذا مكانه بين العجزة الذين قال الله عنهم: ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج : ٧٣].

وعلي فراشه المتعفن بجرائمه، المستجير من جواره راح يذكر من عاش عمره الوبيء ينساه.. راح يذكر الله فحملق بعينيه الزائغتين إلي أعلي وبسط كفيه وقال: اللهم اغفر لي، فإنهم يقولون: لن تغفر لي.

حتى في كلماته الأخيرة ومناجاته الثكلى كان ماكرا وخبيثا.

لكأنه أراد أن يستفز رحمة الله يؤلبها علي الذين يتألون عليه- سبحانه – قائلين : لن يغفر الله له.

ولابد أن الخبيث الداهية كان يعرف تلك الأحاديث النبوية الكريمة التي ينهي فيها الرسول عليه السلام عن التألي علي الله والتحكم في رحمته فقال ما قال.. اغفر لي ، فإنهم يقولون : لن تغفر لي.

لذلك لم يكد "الحسن البصري" رضي الله عنه يبلغه هذا الدعاء حتى قال والأسف يكسو

كلماته أو قد قالها؟

قالوا : نعم..

قال: والله إني لأخشي أن يغفر الله له بها.

في هذا النبأ عظة، كلما تأملناها ربحناها.

فالحجاج لا ترشحه جرائمه لغير جهنم .. ومن ذلك فإذا كان من حقنا أن ندينه وندين مظالمه وجرائمه.. فليس من حقنا أن نصدر من جانبنا قرارا بإدخاله النار.. فذلك حق الله وحده لا يقبل من عبد أيا ما تكن مكانته ومنزلته أن يشاركه فيه.

إنك تستطيع أن تقول: المجرمون في النار ولكن ليس من حقك أن تقول عن مجرم بذاته: هو في النار.. ولو تأدبا مع الله علي الأقل.. ومن يفعل ذلك يواقع إثم "التألي" علي الله وهو إثم نهي الرسول عنه وحذر منه.

ويضرب الرسول الكريم لهذه الخطيئة مثلا يزجر به الناس عنها فيقول: **كان فيمن قبلكم أخوان. أحدهما يطيع الله ويعبده والآخر يعصيه**.. وكان العابد يدعو أخاه إلي طاعة الله كثيرا ويزجره عن عصيانه وهو لا يستجيب له.. وفي يوم بلغ اليأس من أخيه مبلغه فقال له: والله ليدخلنك الله النار... ولما ماتا جمعهما الله بين يديه وسأل الذي كان يعصيه: ما حملك علي معصيتي؟ فأمسك الحياء لسانه ولم يدرما يقول... ثم سأل الطائع العابد: ما الذي حملك علي أن تتألي علي؟

أأشركتك معي في رحمتى وعذابي...؟ ثم قال للملائكته اذهبوا بهذا إلي الجنة ثم أشار للطائع الذي تألي عليه وأراد أن يجعل من نفسه وصيا علي رحمة الله وعلي عقابه: وخذوا هذا إلي النار.

هو كما قلنا مثل بليغ يضربه الرسول للناس لعلهم يتذكرون.فأيان يذهبون.. أولئك الذين يتألون علي ربهم ويصدرون "الفرمانات" بالزج في النار بمن يشاءون.

هناك من الوعاظ والدعاة والمسئولين الدينيين من تسارع ألستهم إلي تكفير من لا يوافق هواهم من المسلمين ويرشحونهم للنار التي لا يملكون من أقفالها مفتاحا ولا نصف مفتاح.

فماذا عليهم لو تواضعوا أمام الكبير المتعال.

وماذا عليهم لو تأسوا برسولهم العظيم الذي كان بشير رحمة ومرفأ أمن.. وبلسم جراح.

***

أفأنت تكره الناس ؟

من أجزل عطايا الله للداعية، أن يبعد عنه" الغرور الديني".. وأعني به ذلك الزهو بما اهتدى إليه من طاعة، وبما آتاه الله من علم، زهوا يجعله تياهاً مختالا.. أو متزمتاً غضوبا. يضيق بأخطاء الآخرين صدره.. ويتعالى على أقدارهم قدره .. من ثم لا نراه كما ينبغي أن يرى ، متراحب الصدر ، شفاف النفس ، ريان المشاعر ، موطأ الأكناف .. !!

وحين يفقد السكينة – تحت وطأة هذا التشامخ – يفقده الناس كداعية مهذب وسويّ.. إذ يفقدون فيه أبهى خصال الداعية، وهي أن يكون بالمؤمنين رءوفا رحيما ..

إلا إنهما لا يستويان مثلا .. الداعية الذي يتحول المسلم بحنانه الرقراق إلى متهلل شكور .. والآخر الذي يتحول المسلم بتجهمه وفظاظته إلى يئوس كفور .. أجل لا يستويان مثلا، فالأول أخذ حظه الموفور من ميراث النبوة .. والثاني أحاطت به خطيئته حين أسلم نفسه للغرور والغلواء ..!!

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝﴾ ؟ [الملك: ٢٢] .

(*) المسلمون – السبت ٢-٨ رجب ١٤٠٥ هـ ٢٣ - ٢٩ مارس (آذار) ١٩٨٥م.

كـم تهـزني هـذه الآيـة الكريمـة: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]

وكم يشجيني ما فيها من حسم وعزم.. وأسأل نفسي : ترى ماذا فعل الرسول العظيم حتى يتلقى عتاب الله على هذه الصورة ؟؟

إنه لم يتحرش قط بضمائر الناس، ولم يحملهم أبداً على ما ليسوا به بمؤمنين.

بل – على العكس – كان يبخع نفسه أسفاً وحزناً على الذين يمر بهم موكب الهدى والنور، ثم يولون عنه معرضين..

كان يأسى عليهم في أسف عميق، وفي حنان رطيب.. حتى ناداه ربه من فوق عرشه المجيد: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف : ٦] ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [النمل : ٧٠] - ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس : ٩٩] هكذا أدبه ربه. وهكذا أدب أنبياءه ورسله جميعاً.. كلهم كان يقول قائلهم لقومه الضاغنين :".. ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ .. [هود : ٢٨] .

يا ليت كل داع إلى الله يستحضر حين يعظ الناس، وحين يأمر بمعروف، وينهي عن منكر.. أقول : ليته آنئذ يستحضر هذه الكلمات المضاءة بنور الله سبحانه وتعالى.. هذه الكلمات العادلة والبارة: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود : ٢٨] !!

عندئذ، سيتطامن غروره، وتستكين شدته وحدته، ويسعه ما وسع أنبياء الله والمرسلين.

وإكراه الناس لا يتبدى في صورة واحدة، هي استخدام القوة لإنجاز هذا الإكراه .. بل له صور شتى، ومظاهر كُثر..

وبالنسبة للدعاة بالذات ، حسبه – أي الإكراه – أن يتمثل في مشاعر باغضة، وكلمات متجهمة وتوجيهات صارمة وموئسة.. أين هذا الأسلوب المنفر من صبغة الله الذي أوصى

نبيه داود قائلا: «يا داود بشر بي عبادي، فإني أحب أن يقولوا: غفور رحيم»؟؟!!

كم من الوعاظ والدعاة من يشد المسلم الظامئ إلى الهدى رحاله إليهم حتى إذا سمعهم ورآهم، نكرهم، وأوجس منهم خيفة..!!

ذلك أن الواحد منهم يحمل في داخل نفسه عاصفة مكبوتة، تتفلت منها بين الحين والحين شظايا مغيظة، وحانقة، ولوامة..!!

ولعل مأثمة الإكراه، بالنسبة لهذا النوع المتجهم من الدعاة، لا تتمثل في شيء كما تتمثل في التشدد الذي لا يعرف المشى هونا .. وفي التنطع الذي قال الرسول عن ذويه : «هلك المتنطعون»... !!!

أعرف من هؤلاء نفرا، إثمهم أكبر من نفعهم، لهم باع عريض، ومقدرة هائلة على تنفير الناس من كل ما هو حق وخير وفاضل.. تحس وأحدهم يكلمك ويدعوك، أنه رجل شرطة، أو وكيل نيابة يتلو عليك قرار اتهام "!!" ويعاملك، كأنه عليم بذات الصدور.. يحدد لك طريقا واحدا، هو طريقه، ويلزمك رأيا واحداً، هو رأيه.. ويظن بالناس ظن السوء، فيتجاهل دوماً فضائلهم، ويركز على نقاصهم مشبعاً بهذا – من حيث يدري أو من حيث لا يدري – إحساسه الخادع بالتفوق على عباد الله الذين لا يستجيبون لأمره، ولا يسبحون بحمده !!

فليدرك وعاظنا ودعاتنا أن كل تشدد إكراه .. لأنه نأى بالإنسان عن المنهج الذي جعله الله يسراً لا عسراً.. وبالتالي ، فهو تكليف بما لا يطاق، ودعوة للإسقاط والإحباط!!

وليهجر هذا النوع من الدعاة كل تعاظم على الناس. وكل ازدراء للخطائين الذين ينتظرهم الله برحمته.. وكل تشدد ينهك حاجتهم إلى سكينة النفس وطمأنينة الضمير!!

وليرددوا مع المنكسرين والمتواضعين: سبحان ذي الجبروت والملكوت.. والكبرياء والعظمة.

* * *

اللهم اسقنا الغيث

علَّم أمته كل شيء.. عليه صلاة ربنا وسلامه وخير ما علمها أن تقف دائماً بباب الله سبحانه . وألا تبحث حين تطلب النصرة عن نصير سواه، لأنها لن تجد من دونه ملجأ ولا ملتحدا.

وكان قدوة أصحابه وقدوة المسلمين جميعاً في الاتصال الناسك والدائم بالله.

لا يغفو لحظة عن ذكر ربه.. وكيف يفعل وهو يراه في كل شيء في الشمس الساطعة.. في النبتة الطالعة .. في المطر الهاطل.. في الذاريات ذروا .. في الحاملات وقرا .. والجاريات يسرا .. في الشمس وضحاها .. والقمر إذا تلاها .. في الليل إذا يغشى .. والنهار إذا تجلى .. في السماء وما بناها .. والأرض وما طحاها .. ونفس وما سواها .. في المرسلات عرفا .. في العاصفات عصفا .. والناشرات نشرا..

ثم في الذي خلق فسوى .. والذي قدر فهدى .. والذي أخرج المرعى، فجعله غثاء أحوى

كيف يغفو عن ربه وخالقه، من تنام عيناه، ولا ينام قلبه؟؟ ومن يبيت عند ربه يطعمه

(*) "المسلمون" العدد الثامن – السبت ٩-١٥ رجب ١٤٠٥ هـ / ٣٠ مارس – ٥ ابريل ١٩٨٥.

ويسقيه ..؟؟!! ولأنه كذلك .. ولأنه الرحمة المهداة من الله العلي الكبير لعباه، فقد كان كما وصفه ربه الأعلى: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ..!! [التوبة: ١٢٨]

وبهذه المثابة راح يأخذنا إلى الله أخذا رفيقاً، ويقف بنا أمام أبواب رحمته..

راح – عليه السلام – يعلمنا متى، وكيف ندعوه ونناجيه. أما متى .. في كل حين وآن لاسيما إذا مسنا الضر، ونزل بالناس ما لا طاقة لهم به..

وأما كيف .. فتضرعا وخفية، وخوفا وطمعاً.. وثقة وأملا.. !! ومن ذلك الضر الذي علمنا اللجوء إلى الله في كشفه، الجدب والقحط اللذان يمسكان اليوم بخناق الناس حيث تتكدس كالتلال جثث الموتى من قتلى الجوع – أطفالا ، ورضعا .. ونساء، وشبابا، وشيوخاً..!! بلاد، قضى أهلها نحبهم .. وبلاد تنتظر .. ولا ملجأ من الله إلا إليه !!!

في مثل هذا الضر، وتلك القوارع والفواجع.. يدعونا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن نتقرب من باب الله أكثر، وأكثر.. وأن نضرع بالدعاء ونستغيث برب الأرض والسماء.. مرددين معه، وقائلين وراءه: " اللهم اسقنا غيثا مغيثا، مريعا، غدقا، سحاء، دائما"..

«اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين»

«اللهم إن بالعباد، والبلاد، والبهائم ، والخلق من اللأواء، والجهد، والضنك، ما لا نشكوه إلا إليك ..

«اللهم أنبت لنا الزرع.. وأدر لنا الضرع.. واسقنا من بركات السماء.. وأنبت لنا من بركات الأرض..

«اللهم ارفع عنا الجهد والجوع والعرى، واكشف عنا من البلاء ما لا يكشفه غيرك..

«اللهم إنا نستغفرك، إنك كنت غفاراً ، فأرسل السماء علينا مدراراً»..

هكذا كان يقف الرسول وصحبه أما باب الله الجواد الكريم، كلما حجبت السماء غيثها، وأرجأت غوثها.. فيستقبل القبلة في المصلى والمسلمون وراءه.. والكل متبذل، خاشع،

متوسل متضرع.. وإمعاناً في التجرد والتذلل للعزيز المجيد، يحول الرسول رداءه، فيجعل يمينه يساره، ويساره يمينه، وظهره لبطنه، وبطنه لظهره.. ثم يأخذ في الابتهال والدعاء.. ثم يصلي ركعتين بلا أذان ولا إقامة يجهر فيهما بالقراءة .. وهذه هي «صلاة الاستسقاء»..

موقف من المواقف التي يحشد الرسول فيها بين يدي الله من يصيبهم ضر الجدب، وكارثة القحط.. وإن ما يعانيه ملايين المسلمين، بل وغير المسلمين في أفريقيا اليوم، لخليق بأن يخرج المسلمون وراء أئمتهم في كل صقع. وفي كل بلد. يجأرون بالشكوى إلى الله، ويتلمسون في مذلة وضراعة أسباب رحمته وعافيته — لا مرة واحدة .بل مرات، ومرات.

وعلى الحكومات والجماعات والأفراد، أن يبسطوا أيديهم بما أفاء الله عليهم من نعمة وثراء إلى أولئك الذين يتساقطون موتى تحت ضربات الجوع والضياع

وهذا نداء للذين هم لربهم يرهبون.

* * *

الرأي والهوى

لم يلق الأنبياء والمرسلون، ولا الهداة والمصلحون من المشقة والعنت، مثلما لقوا من أصحاب الهوى وذويه!!

ذلك أن الهوى لا يعرف المنطق، ولا يأبه بالحقيقة، ولا يصغى لبرهان.. بينما يتوسل المرسلون والمصلحون لإبلاغ دعوته بالمنطق، وبالحقيقة، وبالبرهان..

وأهل الهوى كالزئبق لا يستقرون على أمر، ولا يثبتون على رشد.. فأهواؤهم المتقلبة دوما، والمتواثبة أبدا، تجعلهم في حركة رجراجة يتقافزون كالقرود !! ليس لهم رأي ولا اقتناع – تقلبهم أهواؤهم ذات اليمين وذات الشمال. فيمسون على هوى، ويصبحون على هوى آخر.. تقودهم أهواءهم كما تقود عصى الرعاة الأغنام والخنازير..!!

ووجود الهوى مؤشر صادق على وجود نفس خبيثة، وقلب مريض!! وإذا استحوذت هذه النفس، وهذا القلب على إنسان، فإنه ينسى ربه، فينسيه الله نفسه ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر : ١٩] .

(*) "المسلمون" العدد التاسع – السبت ١٦-٢٢ رجب ١٤٠٥ هـ / ٦-١٢ ابريل ١٩٨٥م

ومن البلاء وللبلاء علامة ألا يرى لك عن هواك نزوع
العبد عبد النفس في شهواتها والحر يشبع تارة ويجوع !!

وخطيئة الهوى لا تدفعنا إلى الذنوب التي تجافي العبادة فحسب.. بل تدفع إلى كل ما يسول الهوى ويريد. في شئون الدنيا، وطريق الدين..

وما أصدق وأحذق "ابن القيم" رضي الله عنه، إذ يقول: "إن الهوى ما خالط شيئاً إلا أفسده.. فإن وقع في – العلم – أخرجه إلى البدعة والضلالة.. وإن وقع في – الزهد – أخرج صاحبه إلى الرياء، ومخالفة السنة.. وإن وقع في – الحكم – أخرج صاحبه إلى الظلم، وصده عن الحق.. وإن وقع في – القسمة – خرجت عن قسمة العدل، إلى قسمة الجور.. وإن وقع في الولاية والعزل – أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين. حيث يولى بهواه، ويعزل بهواه. وإن وقع في العبادة، خرجت عن أن تكون طاعة وقربة.. وهكذا، ما خالط الهوى شيئاً إلى أفسده ...!!

إذن، ففي الدنيا كما في الدين. وفي السياسة كما في العبادة. يضل الهوى ويردى – ويلقى بالأيدي إلى التهلكة والوبال!!

وحين تجد الصدود عن الحق، فاعلم أن الهوى هناك!! من أجل ذلك فتح الله – سبحانه – بصيرة رسوله على هذه الحقيقة، فقال له: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [القصص: ٥٠].. وحذره وهو المعصوم، فقال: ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠].. ووصاه قائلا: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾.. [الكهف: ٢٨]

ولا تصاب الأمم بشر ما يمزقها إلا حين يسود الهوى.. ويغيب الرأي!! وإذا وضعنا "الرأي" مقابل "الهوى" فإننا نعني ذلك الاقتناع الذي يستمسك صاحبه بعراه بعد درس وتمحيص وانتقاء.. وهذا هو "الرأي" كما يراه الإسلام.. فلطالما كان الرسول – عليه السلام – وكان خلفاؤه – رضي الله عنهم – يقولون للناس: ماذا ترون ..؟؟ وكان الإمام "أبو حنيفة" رضي الله عنه يقول "فقهنا هذا رأي .. فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه" وهو يعني – طبعا – اجتهاداته واستنباطاته فيما لم يحكم به نص صريح..

إن الآراء البازغة من عقول رشيدة ، لا الأهواء الزائغة – هي التي تضع الحاكم و الشعب، كما تضع كل قوى المجتمع على طريق الفضيلة والحق.. وإذا رأيت أمة يكبت فيها الرأي، فاعلم أن الهوى بها يفرز من باطل وضلال قد شاد بنيانه، وبسط سلطانه !

وحياة الأمة – أية أمة – مرهونة سلامتها، ومرهون مصيرها بكثرة ما تمتلك من آراء نزيهه صادقة، وبحظها الأوفى من أحرار القلوب، الذين لهم أعين يبصرون بها، وآذان يسمعون بها، وعقول يفقهون بها، وبالتالي فان لهم آراء يسهمون بها في هداية حكامهم إلى الحق، وتنوير شعوبهم في كل قضايا الحياة – سياسية ، واقتصادية واجتماعية

والمسلم حقا، هو من يكون له رأي لا يكتمه، واقتناع لا يلجمه!!!

قد هيأوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

والحاكم الحصيف والرشيد بحق، هو من ينمي في شعبه سلطان الرأي، ويرفض نفاق الهوى وضلاله.

يقول شيخنا الجليل "ابن القيم" : " هناك حاكمان – حاكم العقل، وحاكم الدين. فمن حاكم أمامهما هواه، فقد نجح وفاز"!!

ما أشد حاجة شعوبنا المسلمة إلى أن يكون لها رأي .. وأن يكون لهذا الرأي ما يستحق من توقير واحترام ..!!

* * *

حتى متى، نعيش بقرة حلوبا ؟!

الذين حباهم الله بقول: كنتم خير أمة أخرجت للناس!! والذين اصطفاهم ليكونوا شهداء على الناس!! والذين منحهم خير رسله وأفضل خلقه.

هؤلاء - وأسفا على هؤلاء - تنازلوا مختارين تارة، ومغلوبين تارة أخرى، عن المكانة التي بوأهم الله إياها.. وظلوا يتهاوون، ويسقطون.. ظلوا يعطون الدنية في دينهم ودنياهم .. ظلوا يتقلبون بين الأطماع اللاهثة والمخاوف الكاذبة حتى تحولوا إلى "بقرة حلوب" لكل ماهر في - فرقعة - السوط وامتطاء الظهور ...!!!

ترى، هل نصدق أنفسنا حين نزعم أن انتماءنا لهذه الأمة التي نعتها الله بأنها "خير أمة" انتماء حقيقي. لا مرية فيه ؟؟ أم نصدق من له العزة جميعا حيث يقول - سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ..؟! [المنافقون: ٨] ألا إن الصادق هو الله، ونحن الكاذبون!!!

إن علينا أن نختار بين من بيده ملكوت كل شيء والآخرين الذين لا يملكون - حتى لأنفسهم - ضراً ولا نفعا..

(*) المسلمون" العدد العاشر - السبت ٢٣-٢٩ رجب ١٤٠٥ هـ / ١٣-١٩ أبريل ١٩٨٥م

أجل.. إما أن نقف إلى جانب الله، فيغطينا بسموات عزه، ويسربلنا بسراويل مجده، ويضرب علينا سرادقات حفظه.. وإما أن نلتمس ذلك كله – العزة، والمجد، والحفظ – من الذين يتربصون بنا الدوائر، ويودون لنا سوء المنقلب، وسوء المصير ..!!!

والاختيار الأول يعني أن نكون مؤمنين، نحترم الحق، ونحتقر الباطل.. نقدم الواجب على المنفعة.. وصالح الجماعة، على أطماع الفرد.. ونخشى الله أكثر مما نخشى أعداءه والضاغنين على دينه وعلى حملة هذا الدين..

وأما الاختيار الثاني، فيعني عكس ذلك تماماً!! وبكلمة واحدة، يعني أن نتبع غير سبيل المؤمنين..

أما أن يتوزع ولاؤنا للاثنين معاً، ويتفرق بينهما، فانئذ يقول الله لنا: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك.. اذهبوا، فالتمسوا الأجر ممن أشركتم معي"..!!

كان واحد من أسلافنا يطوف بالكعبة ذات يوم، فرأى بين الطائفين والطائفات امرأة يشع محياها بالجمال والبهاء، فاقترب منها وأنشد:

أهوى هوى الدين، واللذات تعجبني ... فكيف لي بهوى اللذات والدين

فأجابته السيدة الورعة: دع أحدهما، تنل الآخر!!!

وكأني بها تنادينا بحكمتها البالغة هذه.. فنحن مدعوون إلى أن نأخذ شيئاً وندع شيئا..

فأي الشيئين نأخذ ونختار؟؟

إن ربنا العلي العظيم يعطينا الجواب إذ يقول: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩] وحين يقول: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ !! [الرعد: ١٤] حين نختار الله تكون العزة من نصيبنا ومن حقنا.. وحين نجد أنفسنا عراة منها، فذلك يعني – في نفس اللحظة، ولنفس السبب – أن اختيارنا هذا كاذب ومدخول..!!

أليس هذا، هو شأننا اليوم؟؟

ألم نترك الله إلى دنيا نلهث فيها كالكلاب؟؟

ألم يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله .. ثم اتخذنا جميعا من أعدائنا والمتكالبين علينا أولئك الأرباب؟!

لقد تحولنا بكل دولنا، وشعوبنا، وأرضنا، وخيراتنا إلى "بقرة حلوب" ولمن ؟؟ لأعداء الله وأعدائنا .. إن الذين فرقوا دينهم بالأمس وكانوا شيعا أضاعوا "الأندلس " زهرة العالم الإسلامي يومئذ، ولؤلؤته الفريدة والمجيدة..!!

واليوم ، ولنفس السبب توشك كثرة من بلاد المسلمين أن تتحول إلى "أندلسات" أخرى ضائعة ومضيعة!!

ما هذا التهالك الذليل على أولئك الذين يريدن أن يطفئوا نور الله .. والذين يعاملوننا كما لو كنا سوائم ورثوها – بين ما ورثوا – من مراعي آبائهم ، وحظائر أمهاتهم ..؟؟!!

أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه..

أتبتغون عندهم العزة؟ فإن العزة لله جميعا.

يقولون: إننا ألف مليون مسلم.. لقد تحولت الأرقام بنا وفينا وعلى أيدينا إلى أكاذيب، بعد أن كانت القاعدة الشهيرة والعميمة تقول : الأرقام لا تكذب!!

لقد انتقلت إليها منا عدوى الكذب يا رجال ..!! إلا إذا كانت الأرقام تعني أننا ألف مليون "فقعة" تائهة في غثاء السيل الذي تنبأ به الرسول ..!!

عودة إلى الله أيها الناس، لعلكم تفلحون .. عودة إلى القوة.. إلى العزة .. إلى التحدي والمقاومة.. إلى الثبات على الأمر.. والعزيمة على الرشد..

وذروا الذين اتخذوكم ودينكم وحقوقكم هزوا ولعبا من أولئك الذين يغزون – إسرائيل – بأرضكم ، وبعرضكم .. وأولئك الذين يسفكون أنبل الدماء وأزكاها في أفغانستان – في توحش وسعار!!

ضعوا في يمين الله أيمانكم ، حكاماً وأمما.. وأعرضوا عن أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم.

أعرضوا عنهم إنهم رجس.. وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة.. ونادوا الله في ضراعة: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]

فسيأتيكم جوابه أسرع من الضوء: ﴿ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]

* * *

لا تخافوا فالله هناك.. ! !

أقرب ما أكون من ربي، وأعذب لحظات إحساسي بعظمته وبجلاله، حين أراه وهو يبتسم ..!!

وتنتشي روحي بغبطة ندية حين تطوف بخاطري أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام التي يقول فيها: يضحك ربكم من كذا .. أو ضحك ربكم من كذا..

وأقول لنفسي: هنيئاً لنا بربنا الضحوك الودود ...!!

إن ذا الجلال والإكرام - يا رجال - يدعونا لأن نسكن إليه، وتطمئن قلوبنا به، ونفتح أفئدتنا لتتلقى من يمينه البرة الحانية - وكلتا يديه يمين - سكينته، ورحمته، ورضاب حنانه..!!

وهو لا يحب أن نتصوره متجهما وعابسا.. ومن أجل ذلك قال فيما يرويه عنه رسوله الكريم: «**أنا عند ظن عبدي بي .. إن ظن خيرا فله.. وإن ظن شراً فله**»..

ومن قبل قال في قرآنه العظيم: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا

(*) المسلمون" العدد الحادي عشر - السبت ٣٠ رجب - ٦ شعبان ١٤٠٥ هـ / ٢٠-٢٦ أبريل ١٩٨٥م

يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ..!! [يوسف: ٨٧]

وما أعذب وأبهى تلك الكلمات التي وصى بها حكيم ابنه فقال: "يا بني، إذا أهمك أمر غدك، فلا تخف.. فالله هناك!! وإذا توجست ضرا، فلا تفزع، وقل لنفسك: الله هناك!! إذا تغشتك أهوال يوم القيامة، فلا تسلم نفسك للجزع، وقل لها: الله هناك..!!

أجل .. الله هناك!! ما أروعها، وما أبدعها، وما أجمعها من كلمات.. وفي حديث عظيم أخرجه الأمام أحمد في مسنده، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

«ما من يوم تطلع شمسه إلا وتقول السماء: يا رب: دعنى أساقط كسفا على ابن آدم، فقد أكل خيرك ومنع شكرك.....!!!

وتقول الأرض: يا رب، دعني أنخسف بابن آدم، فقد أكل خيرك، ومنع شكرك..!!

وتقول الجبال: يا رب دعني أطبق علي ابن آدم، فقد أكل خيرك، ومنع شكرك..!!

وتقول البحار: يا رب دعنى أغرق ابن آدم، فقد أكل خيرك، ومنع شكرك...!!

فيقول الله سبحانه لها: لو خلقتموه ، لرحمتموه..!! دعونى وعبادى .. إن تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم .. وإن لم يتوبوا ، فأنا طبيبهم " ...

أرأيتم لوحة تصور رحمة الله وحنانه، أروع من هذه التي صور فيها الرسول هذه الرحمة وهذا الحنان ؟؟!!

كم هي مشجية، ومبكية ومفرحة هذه الكلمات: «لو خلقتموه، لرحمتموه»..!!

اللهم لا نحصي ثناء عليك .. ولا نطمئن إلا بك وإليك.. يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها.. اجعلنا جديرين بالعبودية لك، والانتماء إليك..!!

إن إدراك العبد لعظمة الرب لا يكتمل إلا إذا تحقق من سمو رحمته، كما يتحقق من حزم عدله..

وإذا اختل الميزان في وعينا، اختل الإيمان معه.. فكن كما يريد الله لك أن تكون. واعرفه

بالحقيقة التي يجب أن يعرف بها.. وقل مع القائل:

إن جــل ذنبــي عــن الغفــران لي أمــل في الله يجعلنــــي في خـــير معتصـــم
ألقــي رجــائي إذا عــز المجــير علــي مفــرج الكــرب في الــدارين والغمــم

عندما أراد الله – سبحانه وتعالى – أن يمن على الرسول وصحبه، ويذكرهم بأعظم آلائه، وأرغد نعمه قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ !! [الفتح: ٤] فالسكينة التي تجعل الإنسان ريان النفس، متهلل الروح، لا يجدها إلا من يعرف الله الرحيم، أكثر مما يعرف الله المنتقم"...!!

«يا داود بشر بي عبادي، فإني أحب أن يقولوا: غفور رحيم»!!

ومن يمتلك «سكينة النفس» فقد دنت منه كل قطوف الحياة..

وقديما قال فيلسوف صيني: " يا رب ضع مباذخ الحياة الدنيا كلها تحت أقدام الحمقى.. وأعطني سكينة النفس..!!

والآن، لا تيأسوا، ولا تبتئسوا، ولا تخافوا، فالله هناك...!!!

* * *

المبشرون بالجنة

عن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال:

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أبوبكر في الجنة.. وعمر في الجنة .. وعثمان في الجنة .. وعلى في الجنة .. وطلحة في الجنة .. والزبير في الجنة .. وسعد بن مالك في الجنة .. وعبدالرحمن بن عوف في الجنة .. وأبوعبيدة بين الجراح في الجنة .. ثم سكت راوي الحديث "سعيد بن زيد" عن العاشر ، فقالوا : من العاشر؟ فقال : "سعيد بن زيد"...!!

هذا حديث ينقله لنا الإمامان الجليلان – أبوداود ، والترمذي عن الصحابي الجليل "سعيد بن زيد" رضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين.

بيد أن للحديث بقية، فلنطالعها..

يقول "سعيد": والله لمشهد رجل منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تغبر فيه وجهه، خير من عمل أحدكم ولو عمر عمر نوح" !!!

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع!!

(*) المسلمون" العدد الثاني عشر – السبت ٧-١٣ شعبان ١٤٠٥ هـ / ٣ مايو ١٩٨٥م

أولئك العشرة الذين بشرهم الصادق الأمين بالجنة درة في تاج كبير وأثير ..!!

هؤلاء وإخوانهم من الأصحاب، هم آباؤنا يا رجال!!

وإنهم – عبر التاريخ – كله لخير الآباء..

ترى لماذا اختص الرسول ببشراه هؤلاء العشرة وحدهم ؟؟

الحق أن هناك غيرهم من ظفر وفاز..

فجعفر بن أبي طالب مثلا، لم يبشر بالجنة فحسب، بل دخلها فعلا، وأخبر الرسول عليه السلام أنه رآه- بعد استشهاده – يطير في الجنة بجناحيه .. ومن أجل ذلك لقب بـ "ذي الجناحين"!!

«رأيت جعفراً يطير في الجنة مع الملائكة»..

هكذا قال خير المرسلين

و"ثابت بن قيس" قال له الرسول : إنك من أهل الجنة ..

و «حارثة بن سراقة» – استشهد يوم بدر فأسرعت أمه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقالت: يا نبي الله حدثني عن حارثة، فإن كان في الجنة صبرت.. وإن كان غير ذلك ، اجتهدت عليه في البكاء.. فأجابها الرسول قائلا: **"يا أم حارثة إنها جنان، لا جنة واحدة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى"**...!!!

و«عبدالله بن سلام» الذي نزل فيه قوله الله سبحانه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ .. [الأحقاف : ١٠] يخبرنا – سعد بن أبي وقاص – فيما يرويه عنه الشيخان، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: إنك من أهل الجنة..

ألا إن أصحابه جميعاً لمن أهل الجنة إن شاء الله .. أولئك الذين صبروا، وصابروا، ورابطوا.. وأولئك الذين أوصانا الرسول الكريم بتوقيرهم وإجلالهم قائلا:

« الله الله في أصحابي.. فوالذي نفسي بيده، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»..!!

ولكن لماذا – مرة أخرى – حظى هؤلاء العشرة بهذا التكريم الخاص من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟؟

لعل جمعهم في حديث واحد، وفي جلسة واحدة يمنحنا ومضة من تفسير.

إذ ربما كانوا يشتركون في مزية عرفها رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما خفيت على الآخرين.

وإن لنلاحظ أن العشرة جميعا كانوا موضع حفاوة وتقدير خاصين.. بيد أنهما – الحفاوة والتقدير – لم يحرم منهما الكثير الكاثر من أصحابه الكرام.

فعن "أبي بكر" يقول الرسول : « **ما فضلكم أبوبكر بكثير صلاة، ولا بكثير صيام . إنما فضلكم بشيء وقر في صدره** » !!

ويقول: **ما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت له كبوة إلا أبا بكر، فإنه لم يتلعثم، ولو كنت متخذاً خليلا، لاتخذت أبا بكر خليلا..!!**

وعن «عمر» يقول : إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه..!!

وعن «عثمان» قال عليه السلام : حين رآه **يجهز من ماله جيش العسرة، ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم..**

وعن «على» قال: **أنت أخي في الدنيا والآخرة.. ومن كنت مولاه.. فعلى مولاه..**

وعن «طلحة بن عبيد الله» قال: **من سره أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة..**

وعن «الزبير» قال : **إن لكل نبي حوارياً، وإن حواريي الزبير بن العوام..**

وعن «سعد بن أبي وقاص» يقول الإمام على – ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفدي أحداً غير سعد، وذلك حين قال له يوم «أحد» ارم يا سعد، فداك أبي وأمي..!!

وعن «عبد الرحمن بن عوف» قال الرسول لزوجاته: **إن أمركن مما يهمني من بعدي وليس**

يصبر عليكن إلا الصابرون والصديقون وكان على رأسهم «عبدالرحمن بن عوف» . إذ أهدى أمهات المؤمنين أرضاً بيعت بأربعين ألفا..!!

وعن "أبي عبيدة بن الجراح" قال عليه السلام: **لكل أمة أمين، وإن أمين هذه الأمة – أبو عبيدة بن الجراح** .

وهكذا كان لكل واحد من العشرة مزيته التي لها في ميزان الرسول تقديرها الخاص.

أما المزية التي اشتركوا فيها معاً، فأحسبها ماثلة في قول «سعيد بن جبير» رضي الله عنه: كان مقام العشرة المبشرين أمام رسول الله في القتال.. وخلفه في الصلاة ..

* * *

كلابُ بلخ

كان « شقيق البلخي » رضي الله عنه من أولياء الله العارفين وذات يوم، وهو خارج إلي الحج سعيا علي قدميه!! التقي بصديق له لم يترايا من عهد بعيد..

ودار الحوار بينهما كما يدور عادة بين هذا الطراز من الناسكين والعابدين..

سأله "شقيق" ما حالكم فيما يقاسيه الناس هذه الأيام من شظف العيش، وضيق ذات اليد...؟؟

فاجابه صاحبه: خير والله يا أخي..إن وجدنا شكرنا.. وإن حرمنا صبرنا..

فابتسم "شقيق" وقال له : هذه حال كلابنا.!! إن وجدت شكرت وإن حرمت صبرت..!!

سأله صاحبه وفمه فاغر من الدهش والعجب: إذن فما حالكم أنتم؟؟

قال "شقيق" : نحن إذا وجدنا آثرنا.. وإذا حرمنا شكرنا..!!

(*) "المسلمون" العدد الثالث عشر - السبت ١٤-٢٠ شعبان ١٤٠٥هـ / ٤-١٠ مايو ١٩٨٥م

صدق الله العظيم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ !!! [الصافات : ١٦٤] فهناك مقام الشاكرين أذا وجدوا، الصابرين إذا فقدوا.. وهو مقام- لا ريب – عظيم...وهناك مقام " المؤثرين " إذا وجدوا .. «الشاكرين» إذا فقدوا...!!!

وهو مقام يعلو، ثم يعلو حتى يرتفع بأصحابه وذويه إلي سدرة المنتهي.. منتهي السمو والنبل والورع والنسك والجلال..!!

ولله في خلقه شؤون.. ولبعض خلقه من نفحاته وعطاياه مالا يناله إلا المقربون !!

بعض الذين في أرواحهم جفاف.. وفي قلوبهم مرض.. وعلي بصائرهم غشاوة، يظنون أن مثل هذه الأنباء أساطير..!!

إذ لا يتصورون أن يؤثر المحروم علي نفسه من هم أشد منه حرمانا- ناسين أن عصر الوحي، حيث «محمد» وأصحابه تتنزل منهم علي الحياة الرحمات، والتجليات، وكل فيض مدرار من معالي الأمور..!!

ينسون أن الله ربهم الأعلي قد وصفهم وأطراهم بقوله الكريم : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ..!! [الحشر : ٩] .

وينسون أن رسولهم ومعلمهم وهاديهم كان يخبرهم أن خير وأفضل وأسمي ما يعطون من صدقة وبر هو ما يبذلونه عن فقر وحاجة وخصاصة وأنهم – كذلك- كانوا يفعلون..!!

من أولئك الرجال يا رجال؟؟

أليسوا هم الذين قال الله عنهم: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ ؟؟

أليسوا هم الأعلام الخفاقة في آفاق ديننا وتاريخنا..؟؟

ألم يجعلهم الله لنا ولمن شاء أن يتذكر أو يخشي قدوة وأسوة ومنارات وهدي...؟؟

فهلا أخذنا عنهم ولو المستوي الأدني الذي نكون فيه "شاكرين"إذا وجدنا .. وصابرين إذا افتقدنا..؟!

هلا ارتفعنا إلي مستوي "كلاب بلخ" التي وصفها "شقيق البلخي" بأنها: إذا وجدت شكرت.. وإذا حرمت صبرت...؟!!

لعل الله- سبحانه وتعالي- لم يمتحن عباده بشيء كما امتحنهم بالمال..

ولقد قال الرسول يوما لواحد من أصحابه **"قليل يغنيك، خير من كثير يطغيك"..!!**

وقال عن واحد من المبشرين بالجنة: **"يدخل عبد الرحمن بن عوف الجنة حبوا.." حتى إذا سئل عليه السلام عن السبب، قال تحبسه أمواله..!! مما جعل "ابن عوف" حين أسمعته هذا الحديث أم المؤمنين "عائشة" يتبرع بقافلة جاءت من الشام محملة بتجارة كان قد أودع فيها أكثر من ثلث ثروته.. تبرع بها جميعا لأهل المدينة، وعيناه تفيضان من الدمع تحسبا وخشية...!!**

ماذا يصنع اليوم أبناء ذلك الرعيل من الأبرار والرجال الكبار..؟!

ماذا نقدم للذين يصرعهم الجوع في بلاد كثيرة من ديار الإسلام...؟!

وماذا نقدم للذين تخرب قراهم ويصرع رجالهم وشبابهم ونساؤهم واطفالهم بل والأجنة البريئة في بطون الأمهات- علي أيدي الجيش الأحمر المجرم في أفغانستان..؟!

ماذا نقدم لضحايا الجيش الإسرائيلي القذر في جنوب لبنان...؟!

ولضحايا "ماركوس" الجبان في الفلبين؟!!

ماذا .....وماذا.. وماذا ..؟؟ يا أهل الدثور؟!!

كيف نشكر الله علي ما أعطانا من ثراء مفيض.. ودنيا عريضة..؟!

ألا يا "كلاب بلخ"- دلينا علي الطريق..!!!

***

العمل في الإسلام

عن خصائص العمل السديد وأخلاقياته، نسوق الحديث..

إنه ليس كل عمل سديداً، وليس كل عمل رشيداً..

إنما السديد والرشيد من العمل ما تتوفر له وفيه صفات السداد والرشد. وأول هذه الصفات – الإتقان.

إن إتقان العمل يعني في تفكير الرسول أمراً بالغ الأهمية. لذلك فهو يربطه بحب الله سبحانه.

وإتقان العمل يعني حشد كل عناصر القوة والجودة حتى يبلغ العمل أعلى مستويات الكمال الميسور.

(*) المسلمون – العدد الرابع عشر – السبت ٢١-٢٧ شعبان ١٤٠٥ هـ / ١١-١٧ مايو ١٩٨٥م

وما لم يكن العمل كذلك فإن إثمه يكون أكبر من نفعه.

إن الرجال الذين يصنعون طائرة ثم لا يتقنون صنعها إنما يعرضون حياة المئات من الناس للموت في حادث مشئوم.!!

وعامل السباكة الذي لا يتقن إصلاح "حنفية" المياه يسبب من الأضرار والإسراف في ضياع المياه الشيء الكثير.

وعامل النظافة إذا لم يتقن عمله في جمع القمامة وتنظيف الطريق إنما يعرض حياة الناس للأمراض والأخطار.

كل عمل غير متقن سرقة.. وكل عمل غير متقن غش.. وكل عمل غير متقن عجز.. والرسول عليه السلام يقول: «من غشنا فليس منا»

ويقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل».

ويعلمنا أن نضرع بهذا الدعاء دوماً وفي صبحنا ومسائنا: لأن العجز والكسل آفة كل عمل.. وبسببهما يفقد العمل إتقانه ويفقد صلاحه.

وإن كل تقدم حضاري تشهده الدنيا لا يرجع إلى ما تنجزه الأمة المتقدمة من أعمال بقدر ما يعود إلى الإتقان الذي تنجز به هذه الأعمال.

ويعلمنا الرسول أن نحب أعمالنا وحرفنا، وأن نقبل عليها في شغف وهيام وإذا لم تعمل ما تحب، فأحب ما تعمل..

من أجل ذلك يوصينا الرسول عليه السلام بالبكور في طلب العمل وفي السعي إليه.

كأنه يريد منا أن نبيت ونحن على موعد وشوق إلى صحوة اليوم الجديد لكي ننجز فيه عملاً جديداً.

يقول عليه الصلاة والسلام: «اللهم بارك لأمتي في بكورها » ويقول: «باكروا الغدو في

طلب الرزق، فإن الغدو بركة ونجاح».

وتخبرنا السيدة «فاطمة الزهراء» بنت الرسول عليه وعليها صلاة ربنا وسلامه أن الرسول زارهم ذات يوم في الصبح المبكر فوجدها مضطجعة فناداها «يا بنية. قومي اشهدي رزق ربك ولا تكوني من الغافلين»!!

كان الرسول يحب البكور ويتفاءل به، وكان لهذا يأمر أصحابه ألا يناموا بعد صلاة الفجر، ويدعوهم أن يواصلوا اليقظة والصحو حتى يشهدوا بواكير الصباح..

والذين تعودوا أن يباشروا أعمالهم مبكرين يدركون أكثر من غيرهم ما لهذا البكور من بركة وخير.

والمتاعب التي يلقاها العامل فى عمله تتويج لحياته.

والذين يعملون بأيديهم أكثر العاملين أجراً وأعلاهم قدراً..

لقد سئل عليه السلام: أي الكسب أطيب؟ فأجاب: «**عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور**»!!

وتركيز الرسول على «عمل الرجل بيده» إعلاء لشأن الحرف التي قد تبدو في أعين البعض منا شاقة أو مهينة، وتزكية للحرفيين والصناع الذين يمارسون بأيديهم المجهدة والمجاهدة أعمالهم وما يصنعون..

ذات يوم أقبل على الرسول مصافحاً أحد المسلمين، فأحس الرسول في كفه خشونة غير مألوفة، فسأله: « **ما بال كفيك قد أمجلتا**» أي أصابتهما الخشونة والتشقق.

فأجابه الصحابي: من أثر العمل يا رسول الله.

فرفع الرسول هاتين الكفين المجلتين.. رفعهما أمام أصحابه ثم قبلهما، ولوح بهما كأنهما راية. وقال مباهيا بهما، ومطريا لهما: «**كفان يحبهما الله ورسوله**»..!!!

والحق أن الرسول شديد الكلف بالحرفيين الذين يعملون بأيديهم ويجدون العناء في أعمالهم.

يقول عليه السلام: «**إن الله يحب المؤمن المحترف**».

ويقول :«**من أمسى كالاً من عمل يده، أمسى مغفوراً له**».

ومن خصائص العمل السديد الرشيد، ومن دواعي إتقانه أن يتم في أناة وصبر، وأن يكون بعيداً عن بواعث الشره والعجلة..

فالتسرع خوفاً من فوات رزق يفسد العمل ويجعله خداجاً ومبتوراً

وإذا كانت العجلة سيئة العواقب في كل شيء، فهي أشد سوءاً فيما نمارس من أعمال، لأن العمل – أي عمل – يحتاج إلى روية وإعمال فكر.

بيد أن الأناة لا تعني الخمود والموت وإنجاز ما يحتاج إلى ساعة، في أيام كثيرات..

فالعمل المسترخي غير العمل المستأني.. والعمل المسترخي ثقيل التبعات، مرفوض من الدين ومن الدنيا، لا سيما إذا كان عملاً متصلاً بمصالح الجماهير، والشره إذا وجه أعمالنا قادها إلى الشر والسوء.

من أجل هذا أكد الرسول كثيراً أن الرزق يبحث عنا بقدر ما نبحث عنه، وأن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها المقدور وأجلها المعلوم.. وذلك في محاولة منه عليه السلام لنهنهة نزعة الشره والطمع والحرص!!

يقول صلى الله عليه وسلم: «**يأيها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطلب، فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب**»..!!

وفي رواية أخرى للحديث: « **فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي أجلها ورزقها**»..

ويقول عليه السلام:« **إذا استبطأ أحدكم رزقه فلا يطلبه بمعصية الله فإن الله لا ينال فضله بمعصيته**»..

ولا ريب أن إعجال العمل إعجالاً يترتب عليه فساده ، وعدم إتقانه عصيان لله وطرح لتعاليم رسوله.

ويستطيع العامل أن يتخطى حاجز العجلة وحاجز الشره، بالتفوق على أنانيته، ويتفتحه على مصالح الناس وآلامهم وآمالهم وحاجاتهم.

ومن تمام سداد العمل ورشده واستقامته ونزاهته أن تراعي حقوقه إذا كان ثمة أجراء..

إن الرسول عليه السلام يصون حقوق العمل والعرق بتعاليم تناهت في الرشد والحنان !!

ها هو ذا يقول: «**أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه**»

انظروا هذا التعبير المتألق المتأنق.. وانظروا هذا الحرص الجليل والنبيل على حقوق الأجراء!!

« أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه» .. إنه يربط بين الأجر والعرق إشارة إلى ما يعانيه الأجير من مشقة وكد يستوجبان المسارعة إلى إعطائه حقه وأجره.

* * *

مرة أخرى مع العمل في الإسلام

العمل في الإسلام كرامة وشرف..

فالذي يعمل ويكدح ثم يأكل من عمله وكدحه وعرق جبينه يمثل نمطا رفيعا من أنماط الشرف والكرامة. ويقول عليه السلام: **"ما كسب الرجل كسبا أطيب من عمل يده"**.. وشرف العمل وكرامته يرجعان إلي ذات العمل وأحقيته، وليس إلي نوعه ودرجته.

وليس في الدنيا عمل حقير وعمل عظيم إلا بقدر وبطبيعة ما يبذل في كل منهما من جهود. وما يكون وراء كل منهما من بواعث ونوايا.

وكل عمل صغير تتفوق فيه يتحول من فوره إلي عمل عظيم. وكل عمل قديم تبتكر فيه يتحول بدوره الي عمل جديد.

إذا كان أحدنا زارعا أو صانعا أو طالبا أو أستاذا أو طبيبا أو مهندسا فإن قدرا كافيا من الولاء للعمل والجهد في إتقانه كفيل بأن يخرج خبأه، ويجلي عظمته...

(*) "المسلمون" - العدد الخامس عشر - السبت ٢٨ شعبان - ٥رمضان ١٤٠٥هـ/ ١٨-٢٤ مايو ١٩٨٥م

ليس من حقنا أن نحقر العمل أيا كان نوعه ما دمنا نتقنه ونمنحه من جهدنا المزيد.

ولأن تكون «الأول» في عمل صغير خير من أن تكون «الأخير» في عمل كبير..

وليس هناك عمل صغير أبدا إذا كان الجهد المبذول فيه كبيرا ونبيلا..

وإن رسول الله عليه السلام ليعلمنا ذلك في الكثير المبارك من أحاديثه.

ها هو ذا يقول: « **لأن يأخذ أحدكم أحبله، فيأتي بحزمة من حطب علي ظهره فيبيعها، فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس - أعطوه أو منعوه** »...

فان يأخذ رجل حبلا ليوثق به حزمة من حطب احتطبه وجمعه فهذا يبدو في أعين الناس تافها وصغيرا- لكنه في الموازين الصحيحة للعمل جليل وعظيم لأنه جهد بذل في سبيل اكتساب رزق حلال وشريف..

وقول الرسول « **خير له من أن يسأل الناس** » يفتح أعيننا علي إنجاز عظيم من انجازات العمل، ألا وهو كف العامل عن السؤال أو التسول...

إن الرسول عليه السلام لا يرضي لأمته أن تكون أمة من المتسولين من أجل ذلك زجر عن المسألة ونهي عنها كما لم يزجر وينه عن شيء آخر..

فعنه- عليه السلام- يروي ابن عمر قوله: « **لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقي الله تعالي وليس في وجهه مزعة لحم** »..

ولما كان المجتمع الإسلامي يعاني في أيامه الأولي من الفقر، والحاجة، والخصاصة، فقد اهتم الرسول كل الاهتمام بصرف المسلمين عن المسألة.

والاستعاضة عنها بالعمل الذي يتزود به الإنسان ليومه..

عني الرسول بأن يظل المسلم كريما لا يمد يده ولا يحني جبهته.. وكان يقول لأصحابه: « **المسألة كلوح في وجه صاحبها يوم القيامة. فمن شاء استبقي علي وجهه**».

ويقول لهم: «**إنما المسائل كدوح- أي خموش- يكدح بها الرجل وجهه. فمن شاء أبقي علي وجهه، ومن شاء ترك.. إلا أن يسأل ذا سلطان أو في أمر لا يجد منه بدا**»..

أجل.. بينما يكثر في المجتمع الفقير المتسولون والسائلون نجد "محمدا" عليه الصلاة

والسلام يحمى مجتمع الإسلام بأن يحضه علي العمل الشريف مهما يكن قليل الوفاض وينهى عن المسألة مهما تكن الحاجة إليها ملحة وداعية..

ويقول لأصحابه :« **لو تعلمون ما في المسالة ما مشي أحد إلي أحد يسأله** ».

ولقد بلغ الأمر بالرسول أن ترك بزجره عن المسألة انطباعا في نفوس أصحابه بألا يسأل أحد أحدا شيئا مهما يكن ذلك الشيء.

يحدثنا الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف فيقول:

«كنا عند رسول الله فقال: **ألا تبايعون وكنا حديثي عهد ببيعته فقلنا بايعناك يا رسول الله فقال ألا تبايعون ؟ فبسطنا أيدينا وقلنا : علام نبايعك؟ فقال أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا والصلوات الخمس وتطيعوا ولا تسألوا الناس شيئا..**»

يقول عبد الرحمن فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم وهو فوق دابته فينزل ليأخذه ولا يسأل أحدا أن يناوله إياه..

تعلم المسلمون الأوائل ذلك من نبيهم الذي رباهم علي الكرامة والعزة..

وتعلموا أنه لو أن رجلا بادنا غسل في يوم حار ما تحت ازاره ورفغيه ثم شرب هذه الغسالة التي نزلت بأوساخ جسده لكان ذلك خيرا وأهنأ من أن يأخذ الصدقة، لأن الصدقة كما علمهم رسولهم أوساخ الناس...

بل ها هو ذا حكيم بن حزام رضي الله عنه يأبي أن يأخذ حتى نصيبه من بيت مال المسلمين..

ذلك أنه ذات يوم سأل الرسول فأعطاه ثم سأله فأعطاه ثم سأله فأعطاه، ثم قال له الرسول : «يا حكيم» إن هذا المال خضر حلو. فمن أخذه بسخاوة نفس- أي بقناعة وتعفف- بورك له فيه .ومن أخذه بإشراف نفس- أي بطمع وشره- لم يبارك له فيه. وكان كالذي يأكل ولا يشبع.. واليد العليا خير من اليد السفلي – فقال حكيم للنبي: والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا- أي لا آخذ من أحد شيئا..

فكان «أبو بكر» يدعو حكيما ليأخذ نصيبه من العطاء فيأبي أن يقبل منه شيئا..

وكان «عمر» يدعوه ليعطيه فيأبي أن يقبله. مما جعل أمير المؤمنين «عمر» ينادي بين

المسلمين قائلا :أشهدكم على حكيم أني أعرض عليه حقه الذي قسم الله له في هذا الفيء فيأبي أن يأخذه وظل حكيم هكذا لا يأخذ شيئا إلا من عمل يده حتى توفي رضي الله عنه.

هكذا كافح الرسول المسألة بالعمل، والتسول بالكدح وكان عله السلام لا يجيز المسألة إلا في الضرورات القاهرة. ها هو ذا عليه السلام يوصي أبا بشر قبيصة بن المخارق فيقول يا قبيصة: إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة:

رجل تحمل حمالة- أي أنفق ماله في سبيل صلح بين فئتين متقاتلتين أو في ضمان أو دية- فحلت له المسالة حتى يصيبها ثم يمسك..

ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش.

ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجي من قومه : لقد أصابت فلانا فاقة- فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش..

«وما سواهن من المسألة ياقبيصة سحت ، يأكلها صاحبها سحتا»..

* * *

متي يكون التجار فجارًا ومتي يكونون أبرارًا ؟ !

تحتل التجارة في عالم اليوم مكاناً استراتيجياً عظيم الأهلية..

والنظامان اللذان يتنازعان العالم ويتجاذبانه وهما النظام الرأسمالي في الغرب والنظام الشيوعي في الشرق، يصدران في خلافهما عن فهم غير متماثل للتجارة..

وكانت التجارة بكل مزاياها ومساوئها هي التي أوحت إلي «ماركس» بفكره الشيوعي وبكتابه «رأس المال».

وقبل ماركس انقسم الفلاسفة إلي فريقين : فريق جعل شعاره «الثروة سرقة» وحمل علي التجارة والتجار الكبار حملات ضارية.. وفريق آخر قدس رأس المال وبالتالي دافع عن التجارة دفاعا حاراً..

(*) المسلمون – العدد السادس عشر – السبت ٦-١٢ رمضان ١٤٠٥ هـ / ٢٥-٣١ مايو ١٩٨٥م.

وقبل هؤلاء وأولئك كان الإسلام.. كان سيدنا «محمد بن عبد الله» عليه أفضل الصلاة وأزكي السلام يتحدث لأمته، أمة الوسط، عن الطريق الوسط «وكذلك جعلناكم أمة وسطا».

كان يتحدث فيما يتحدث عن التجارة وعن التجار علي طريقته التي يمزج فيها الصدق بالبر،والعقل بالوجدان، وكان يجعلها قضية من قضايا الله ومن قضايا الضمير!!

وهو يعطيها حقها في الوجود وفي الاستمرار بعد أن ينقيها من شوائبها وأشواكها الحادة. وبعد أن يضعها علي الطريق المستقيم..

والآن، لنتأمل معا هذا الحديث:

«إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا.. وإذا ائتمنوا لم يخونوا.. وإذا وعدوا لم يخلفوا.. وإذا اشتروا لم يذموا.. وإذا باعوا لم يمدحوا.. وإذا كان عليهم لم يمطلوا.. وإذا كان لهم لم يعسروا...»!!!

إذا نحن نقلنا هذه الصفات من التجار إلي التجارة عثرنا علي أعدل وأمثل نظام اقتصادي تكون التجارة فيه خادما طيبا، لا سيدا ومستبدا ....!!!

بيد أن الرسول الذي قال: **« التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين يوم القيامة»** هو الذي دخل السوق يوما والمسلمون يتبايعون فصاح: **يا معشر التجار.. حتى إذا رفعوا أبصارهم وأعناقهم مصغين لنداء الرسول قال لهم: « إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا إلا من اتقي الله وبر وصدق»..!!!**

وبهذا أكمل الصورة الصادقة للتجارة والتجار..

والتاجر الكبير كالتاجر الصغير في مسئوليته عن تجارة نظيفة لا غش فيها ولا استغلال ولا احتكار.

والشركات التي يبلغ رأسمالها عشرات ومئات الملايين أكثر مسئولية وأولي بالتقريع والحساب العسير إذا هي انحرفت عن جادة الطريق.

وأول ما ينهي الرسول عنه التاجر هو الحلف الكاذب لترويج سلعته.

ويقول عليه السلام: «**إياك وكثرة الحلف في البيع، فانه ينفق ثم يمحق**»..!!

ومثل الحلف الكاذب تلك الدعاية الكاذبة التي يستغل بها التجار الكبار، السذج من الناس والتي تملأ الصحف والإذاعات وشاشات التليفزيون..!!

إن هذا اللون من الدعاية إذا كان كاذبا ومبالغا فيه يشكل خيانة للناس وخيانة للأمانة..

وهنا نلتقي بكلمات الرسول عن هذه الفئة من التجار الذين استحقوا مقته لأنهم «يحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون»..

وينهي الرسول عن الاحتكار، ويري فيه إثما مبينا وخطرا ماحقا.

يقول عليه السلام: «**بئس العبد المحتكر.. إن أرخص الله الأسعار حزن وإن أغلاها فرح**»!!

وهؤلاء الذين يلعبون بأقوات الناس ويحتكرون السلع انتظارا للغلاء لا يستحقون أن يكونوا عبادا لله..

يقول عليه السلام: «**من احتكر طعاما أربعين يوما يريد به الغلاء فقد برئ من الله تعالي وبرئ الله تعالي منه**»...!!

إن المحتكر في نظر الرسول قاتل... إنه لا يقتل فردا بل يقتل مجتمعا .. وإن إطعامه الشرهة تجعله يتجاري كما يتجاري الكلَب - بفتح اللام - بمن عضه كلب مسعور...!!

إن إطعامه هي ذلك الكلب المسعور الذي يظل يعضه وينهشه حتى يبتليه بشر مصاب..

إنه قاتل، ومجرم وملتاث....!!

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام «**يحشر الحاكرون وقتلة الأنفس في درجة واحدة.. ومن دخل في شيء من سعر الناس يغليه عليهم كان حقا علي الله أن يعذبه**»!!

ويزجر الرسول التجار عن التهالك والطمع والأنانية ويخبر أن هذه الثلاث لن تزيد الرزق شيئا. وإنما تفقد المبتلي بها سكينة النفس وشرفها وكرامتها..

إننا كثيرا ما تجمح بنا الرغبة في الثراء إلي البحث عن المال من أي طريق وفي التجارة يعمد عُبَّادُ الثراء إلي الغلاء المجنون ولا يرضون من الربح إلا أفحشه ظانين أنهم يأخذون من الرزق ما لم يقسمه لهم الله.. بل إنهم أحيانا يستبطئون الثراء فيطلبونه بمعصية الله ناسين أن الله لا ينال فضله بمعصيته... والرسول يعلمنا- لاسيما التجار منا- ألا نستبطئ الرزق وإذا استبطاناه فلنحاذر أن نتعجله بوسائل غير مشروعة لأننا بهذا نعرض أنفسنا لمقت الله..

إن التاجر لم يستحق أن يكون مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين يوم القيامة الا بما يستمسك به من الصدق والأمانة والقناعة .. وعلي التجار أن يذكروا قول الرسول علية الصلاة والسلام: «**ليس الغني عن كثرة العرض ولكن الغِني غِني النفس**».

وقوله : «**إن الرزق ليطلب العبد أكثر مما يطلبه أجله**»!

يحدثنا «أبو ذر» صاحب رسول الله فيقول: «جعل رسول الله صلي الله عليه وسلم يتلو هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾- [الطلاق ٢، ٣] فجعل يرددها ويقول: « **يا أبا ذر لو أن الناس أخذوا بهذه الآية لكفتهم**».

إن التجار يمسكون بعصب الحياة وهم بنكوصهم عن تبعاتهم وبالرغبة الشرهة المسعورة في الربح الكثير الباهظ، يخنقون المجتمع ويثيرون فيه البلبلة والفوضي وينشرون الأزمات والخراب..!!

وهم بهذا يعرضون أنفسهم لمقت الله ومقت الناس ، وإنهم لمعنيون بقول الرسول صلي الله عليه وسلم يقول: «**من كانت الدنيا همه فرق الله شمله وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له**».

* * *

حوار..!!

لو استشهدت بين أيديهم بقول الفرزدق:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

ما وفيتهم بعض ما يستحقون من تكريم، وتوقير، وإجلال، ولا صورت بعض ما في أنفسنا من ازدهاء بهم، وفخار ..!!

أولئك هم، ذلك الرعيل الصالح العظيم .. المتفوق والمتألق .. من سلفنا السباق، وشيوخنا الرواد!! إن أمرهم لعجيب. وإن وصفهم لمن الأمور الصعبة ..

إذ لابد لكي نحسن الوصف ونجيده، أن نرقي رقيهم. أو علي الأقل نقترب منهم بأبصار تقدر علي مواجهة أنوارهم الباهرة والمبهرة..!

ما هذا الولاء المطلق لله، ولرسوله، ولدينه، وللحق الذي جعله الله قياماً للناس ..!!

ماذا كانت تلك الشجاعة المقتحمة التي واجهوا بها الخلفاء، والرؤساء والحكام .. بينما

(*) المسلمون – العدد السابع عشر – السبت ١٣-١٩ رمضان ١٤٠٥ هـ/ ١-٧ يونيو ١٩٨٥م.

كانت السلاسل والأغلال التي يرهبون بها العباد تملؤ منهم الأعين والأسماع متوعدة ومنذرة...؟!

ألا إنهم للرجال، يا رجال !!

وأولئك، هم المؤمنون حقاً..

تعالوا إلي لقاء سعيد، ومجيد مع واحد منهم .. ذلكم هو أبو حازم بن دينار لابد أنكم قد شممتم عبيره، واستشرفتم عظمته!!

عالم وصوفي وقديس من الرعيل الأول الذي أحسن الإسلام تربيته، وصاغه في أحسن تقويم.. سعدت به الحياة في عصر الخليفة الأموى "عبد الملك بن مروان"..

ولقد بلغ في زهده وورعه وترفعه، وتقواه مدي يتعاظم كل وصف وإطراء.. وكان الخليفة "عبد الملك بن مروان".

رغم زهوه، وشموخه، واعتزازه بالملك وبالنفس ينبهر بروح «أبى حازم» ويتقأمأ أمام جرأته وصدقه وقضاء ما يملأ يقينه من ترفع وزهادة.

وذات يوم سافر «عبد الملك» إلي المدينة المنورة .. ولم يكد يستقر في قصره المنيف حتي طلب من حاشيته خلصائه أن يدعوا «أبا حازم» للقائه.

كان يعلم تماماً حزمه وحسمه إذا واجه الخلفاء والرؤساء .. وإن له معه تجارب سابقة، يذكرها ولا ينساها .. ويذكر تلك الكلمات القواطع التي يرسلها "أبو حازم" في وجه أعلي الجباه، وأكبر الرءوس، ماضيات كالسيوف المرهفة ..!

ولبي «أبو حازم بن دينار» دعوة الخليفة العظيم «عبد الملك بن مروان» .. وبين العملاقين – عملاق السلطان، وعملاق الإيمان .. عملاق الحكم، وعملاق الحكمة ، دار هذا الحوار:

الخليفة: يا أبا حازم ما هذا الجفاء؟؟

أبو حازم: أي جفاء رأيت مني يا أمير المؤمنين؟!

الخليفة: وجوه الناس زاروني، ولم تزرني..

أبو حازم: ما أنت لي، ولا أنا لك بصديق !!

الخليفة: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت ؟؟

أبو حازم: لأنكم عمرتم الدنيا، وخربتم الآخرة، فتكرهون الخروج من العمران إلي الخراب !!

الخليفة: صدقت والله يا أبا حازم .. تري ماذا لنا عند الله غداً ؟؟

أبو حازم: أعرض نفسك علي كتاب الله، تعرف مكانك عنده !!

الخليفة: وأين أجده في كتاب الله؟؟

أبو حازم: عند قوله تعالي: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الإنفطار: ١٣ ، ١٤] !!

الخليفة: فأين رحمة الله إذن؟؟

أبو حازم: قريب من المحسنين!!

الخليفة: وكيف لنا أن نصلح أنفسنا ؟؟

أبو حازم: تتركون الصلف، وتتمسكون بالمروءة، وتقسمون بالسوية وتعدلون بين الناس، وتأخذون المال بحقه، وتضعونه في حقه !!

الخليفة: يا أبا حازم، ألا تصحبنا فننتفع بعلمك؟؟

أبو حازم: إني أخاف – لو فعلت – أن أركن إليكم شيئاً قليلاً، فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات. ثم لا أجد لي منه نصيراً !!

الخليفة: إذن، فارفع إليَّ حاجتك، أقضها لك..

أبو حازم: تدخلني الجنة، وتبعدني عن النار !

الخليفة: ليس ذلك لغير الله ..

أبو حازم: وليس لي حاجة سواها !!

الخليفة: يا أبا حازم. ما رأيك فينا ؟؟

أبو حازم: ألا تعفيني من هذا السؤال ؟!

الخليفة: إنها نصيحة تلقيها إلينا..

أبو حازم: إذن فاسمع .. إن آباءك اغتصبوا هذا الأمر من الناس .. أخذوه عنوة بالسيف من غير مشورة ولا اختيار !! وقد قتلوا من أجله خلقاً كثيرين، وبعد حين رحلوا .. فلو تدري مصيرهم عند الله ..؟!

وهنا صاح كبير حاشية الخليفة قائلاً لأبي حازم: بئس ما تخاطب به الخليفة ..!!

وأجابه «أبو حازم»: كذبت .. إن الله أخذ على العلماء ميثاقه ليُبَيّنُن للناس الحق، ولا يكتمونه .. !!

وبهت المنافق الكبير !! واستأنف الخليفة الحوار..

- يا أبا حازم، أوصني..

أبو حازم: نعم .. سأوصيك وأوجز.

نزه الله تعالى وعظمه، بحيث لا يراك حيث نهاك .. ولا يفتقدك حيث امرك ..!! وهم أبو حازم بالانصراف، فقدم الخليفة إليه صرة مثقلة بالدنانير، وقال والحياء يكسو وجهه: ألا تقبل منا هذه ..؟؟ وابتسم «أبو حازم» ابتسامة ساخرة وقال:

«والله ما أرضاها لك .. فكيف أرضاها لنفسي» ..؟!!

وبعد، فهل هناك في العالمين من يستطيع أن يردف هذا الموقف البهي، الشذي، العلي بتعليق؟؟!!

أبداً .. مهما أوتي من فصاحة القول، وروعة التعبير ..!!

فيا سيدنا وشيخنا، وإمامنا «أبا حازم»..

تحية لك..

وتحية للرسول الذي علمك..

وللدين الذي أنجبك..

وإذا أذنت – فسلام علينا .. وعلى عباد الله الصالحين..!!!

* * *

ظنوا بربكم خيرًا يؤتكم خيرًا .. !!

أنا يا أصدقائي القراء- لا أسأم الحديث عن رحمة الله ..!!

ولعلكم تكونون كذلك: فالحديث عن الرحمن الرحيم آية علي ذكاء الإيمان، وصدق المعرفة بالله.. والإيمان الحصيف الذكي والمعرفة الصادقة والسديدة بالله، طريق منداح يصل بالعبد إلي ربه العلي الكبير في مثل سرعة الضوء .. كما أنهما يثمران أعظم فضائل المؤمن – ألا وهي: حسن الظن بالله ..!! وإذا تغشي حسن الظن هذا غاشية من الظن القلق، والمتوتر، والمرعوب فإن المؤمن يكون بهذا أخلف ظن الله فيه ويكون قد قطع واحداً من أهم خطوط الاتصال بينه وبين ربه !!

ولعل هذه الكلمات تفسر ما يرويه الحديث القدسي الصحيح «أنا عند ظن عبدي بي .. إن ظن خيراً فله .. وإن ظن شرا فله» ...!!

(*) المسلمون – العدد الثامن عشر- السبت ٢٠-٢٦ رمضان ١٤٠٥ هـ/ ٨-١٤ يونيه ١٩٨٥م.

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .. وإني لأحفظ هذه الآية الحانية الكريمة، كما يحفظها الذين يتحفظون بها على كل حديث عن رحمة الله ..!!

إنني حين أمضي وأتهادي في جنان (الرحمة) الإلهية متأنيا مستوثقاً: فإنه لا يعزب عني مثقال ذرة من الإيمان بأن رحمة الله سبحانه وتعالي – هي وعده الصادق للذين آمنوا واتقوا وأحسنوا.

بيد أني أعلم – وأرجو أن تكونوا تعلمون – أن من تمام الإيمان والتقوى والإحسان ألا تسيء الظن بأسمي صفات الله – وهي رحمته !!

إنك إن فعلت تكون قد أخذت مكانك القميء والتعس بين الذين يحملون أوزارهم علي ظهورهم – والذين عنفهم الله بقوله: ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ ..!! [الأنعام : ٣١] . فإذا لم تجعل رحمة الله «منتجعك» النضير، وأملك الكبير، فقد أسلمت كاهلك للأحمال الثقال .. أحمال همومك ومخاوفك وجزعك ويأسك ..!!!

وفي نفس الوقت ولنفس السبب تكون قد نزعت من قلبك رحمتك لنفسك، وحرمتها من أثمن نعم الله علي عباده، وهي «السكينة»..

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ ..[الفتح آية : ٤]
إذن فالسكينة تربي الإيمان، وتضاعفه وتنميه..

وإذا كانت رسالة الشيطان تتمثل – أول ما تتمثل – في محق الإيمان وسحقه .. وفي طمره تحت أنقاض اليأس والاكتئاب، وأنقاض نفسك المنهارة .. فإنك بهذا تكون قد أخرجت نفسك من حديقة السكينة والرجاء، والأمل، والإيمان .. وقذفت بكل مقاديرك السعيدة إلي أتون اليأس، ومرارة القنوط.

إن الأعرابي الذي قال: «إن حاسبني علي ذنبي حاسبته علي عفوه» .. كان – رغم بداوة منطقه – يمثل الفهم الصحيح والسديد للعلاقة السمحة الفطنة بين العبد والرب..!!

ولمثل هذا العبد المدِلّ علي ربه بما له سبحانه من رحمة لا تفيض ومن حنان لا منتهي له .. لمثله يقول الحق سبحانه: «من مشي إلي شبراً، مشيت إليه ذراعاً .. ومن مشي إلي ذراعاً، مشيت

إليه باعاً.. ومن أتاني يمشي أتيته هرولة» ..!!!

إن الله الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، ليعلم أن الطريق الذي سيمشي العبد عليه إليه، مملوء بالمهاوى والحفر.. مسبب للعثرات .. محشود بقطاع الطريق من شياطين الإنس والجن.. ومن نزوات النفس ونزعات الهوى .. ومع ذلك فهو - جل جلاله - يسارع إليه - ذراعاً، إذا مشي العبد شبراً.. وباعا، إذا مشي إليه ذراعاً.. وهرولة، إذا مشي العبد حبوا..!!

ولتكن عثراته ما تكون، ولتقطع النزوات والنزعات عليه الطريق. ولتتشبث بقدميه، ولتحتبس خطاه حتي تعتاقه عن المسير..!!

كل ذلك لن يحرمه من عون الله له .. ومن هرولته - سبحانه - إليه..!!

ذلك أن ربه الذي يشد الرحال إليه، ليس - فقط - الأول في وجوده .. بل، والأول في جوده...!!

إن الإنسان قد تلقي «مختاراً» من يمين الله القدير، المسئولية الكبري التي عرضت علي السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها ..!!!

حملها الإنسان في «فدائية» رائعة، وفي بؤس عظيم .. ولكم كان حاذقا وصادقا وليُّ الله "يحى بن أبى كثير" حين قال : - لا تعجب ممن هلك.. ولكن اعجب ممن نجا، كيف نجا»...!!

أجل.. ليس العجب من الكثرة الهالكة .. وإنما العجب من القلة الناجية !!

ومع ذلك، فالله العلي الأعلي يدير حساباته علي طريقته، وليس علي طريقتنا .. ومن ثم فهو كما قال الرسول الكريم: أرحم بعبده المؤمن من الأم بولدها الرضيع ..!!

* * *

ألهذا جمعتنا . . ؟

أقبل القرشيون ينادي بعضهم بعضا: أن هلموا إلى الصفا ؛ فإن "محمدا" هناك، يريد أن يتحدث إليكم.

وما كادوا يتحلقون حول الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى احتواهم بنظراته الحانية والصافية.

وانفرجت شفتاه عن كلمات هادئة كضوء الفجر:

يا معشر قريش، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم .. أكنتم مصدقي ..؟؟

صاحوا جميعاً في صوت واحد: نعم – واللات – نصدقك: فما جربنا عليك كذبا.

وعادت الكلمات تتحدر من بين ثناياه، كأنها حبات لؤلؤ منثور..

إذن فاعلموا أني رسول الله إليكم لتعبدوه وحده، ولا تشركوا به شيئاً من آلهتكم

(*) المسلمون – العدد التاسع عشر – السبت ٢٧ رمضان – ٣ شوال ١٤٠٥ هـ/ ١٥-٢١ يونيه ١٩٨٥م.

وأصنامكم ..

وسرت بين الجميع همهمة لا تكاد تبين .. تلقاها بلسانه السليط "أبولهب" وصرخ بها صرخة الخائف المذعور، والحانق الموتور: فقال للرسول:

تباً لك .. ألهذا جمعتنا ...؟؟ !!

وإذا كان لكل أمة «جحاها» .. فلكل جيل «أبو لهبه»

وأبو لهب هذا، أو «آباء لهب» الذين لا تبرأ منهم دعوة، ولا يخلو منهم عصر.. والذين ينفرون نفور «الحمر الوحشية» من كل نداء يدعوهم إلى الله .. وإلى الخير .. وإلى الحق..

هؤلاء «اللهبيون» منكوب بهم كل عصر، وكل جيل. يقطعون الطريق على كل إصلاح مرتجى .. وعلى كل حقيقة تقدم تفسيرات ذكية لمشكلات الحياة واحتياجات الإنسان...

وشعارهم، هو نفس شعار كبير عائلتهم، ورائد زحفهم إلى الوراء« أبي لهب »: إنا وجدنا آباءنا على أمة. وإنا على آثارهم مهتدون"

وهؤلاء «اللهبيون» تراهم على كل طريق يسير عليه منذر، أو مصلح، أو هاد.. وكلما أرسل هذا النذير، أو المصلح، أو الهادي سنا كلماته للسائرين معه، أو الملتقين به على الطريق. صاح «اللهبيون» تبا لك.. ألهذا جمعتنا ..؟ ! إنهم لا يريدون أن يجتمعوا إلا على ضلالة..

أما الهدى، ففي قلوبهم منه مرض.. وفي آذانهم صمم.. وعلى أعينهم غشاوة ... !!! إنهم يخافون الحقيقة، ويهربون منها .. ويحاذرون العقل ويعطونه ظهورهم وأقفيتهم..

لماذا...؟

لأن« الحقيقة» تكشف الزيف .. ولأن العقل يقاوم الهوى ويؤكد الصدق ..

يقول الإمام علي كرم الله وجهه لقد سبق إلى جنات عدن أقوام ما كانوا بأكثر الناس صلاة، ولا صياما، ولا حجا، ولا اعتماراً.. لكنهم – عقلوا – عن الله مواعظه"

وتقول السيدة «عائشة » رضي الله عنها : **"قد أفلح من وهبه الله عقلا"** فالولاء للحقيقة وحسن استخدام العقل، هما خير ما يفاء على الانسان من نعمة.. والذين «يعقلون» عن الله مواعظه – كما قال الإمام على – هم أهدى الناس سبيلاً.. وأقومهم قيلا.

إن حياتهم وإيمانهم في تجدد دائم: لأن رؤى الحقيقة والعقل لا تنفد ولا تهرم..ومن ثم فهم يحيون معها في شباب دائم . وفي غدق مفيض من الحكمة ، ومن الحق، ومن الخير، ومن الصواب..

أما «اللهبيون» القانطون من أن يكون لهم بين الخيرين مكان .. والناعقون بها لا يسمعون .. والذين ارتابت قلوبهم، فهم في ريبهم يترددون.

أقول: أما هؤلاء . . فسواء عليم : أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون.. !!

* * *

لكي نكون نورًا وعبيرًا

حكمة بالغة، وأمر عجيب، في هذا العضو من أجسادنا وأعضائنا وهو : اللسان.. !!

إن كافة أعضائنا المتحركة ، ينالها التعب إذا جاوزت حركتها مدى طاقتها واستطاعتها..

حرك رأسك طويلا.. أو حرك أيا من ساقيك.. وذراعيك طويلا .. فإن التعب لا محالة نازل بك وبها . مضن لك ولها .. إلا اللسان ..!!! لو لبث فى حركة دائمة ودائبة . تتصل فيها الساعات بالساعات ... بل الأيام بالأيام، فإنه لا يكل، ولا يمل ، ولا يعيا.. !!

أية حكمة بالغة، وأي سر عظيم؟؟!

ألا يكون الله – سبحانه – وقد أمرنا بدوام ذكره، قد جعله كذلك ييسره للذكر..؟!

ألا يكون وقد جعله الله سبحانه – الأداة الوحيدة للدعوة إلى الخير والحق، قد هيأه ويسره لما خلق له ..؟

(*) "المسلمون" العدد الحادي والعشرون – السبت ١٢-١٨ شوال ١٤٠٥هـ / ٢٩ يونيه – ٥ يوليو ١٩٨٥م.

ألا يكون، وقد جعله الله سبحانه الوسيلة الوحيدة للتخاطب والتفاهم، قد جعله طوع الكلمات ولو كانت كهدير البحر..!

كل ذلك قد كان ..

ولكل ذلك خلقه البارئ العظيم، وأمده بهذه المقدرة العجيبة والميزة الفريدة..

وهكذا صار «اللسان» غنما للإنسان لا يماثله غنم ولا يضاهيه إحسان..

بيد أنه كذلك غرم كبير وخطر رهيب لمن، وعلى من يسيء استخدامه ويطلقه في غير تأن وروية وحساب..

سئل حكيم: ما أكثر ما يورد الناس المهالك؟؟ قال: «عثرات اللسان».. !!

اللسان – يا أخي – هو جنتك أو نارك .. هو نَجِيُّك أو بَغِيكُّ .. هو صديقك الحميم أو عدوك الرجيم..

وبعبارة واحدة: هو أنت .. أو لا أنت.. !!

أنت – كإنسان سوي وضيء يحيا مثل زهرة حلوة في بستان الله، بما تملك من لسانك.. وبما يفوح من عبير كلماتك الطيبات.. !!

ولا أنت- إذا ابتغيتها عوجا، وتركت لسانك يهدر بكلمات السوء، والباطل، والبذاءة، والأضاليل.. !! من أجل ذلك طالما حذرنا الرسول الكريم من حصائد الألسنة.. ويضرب لمخاطر هذه الحصائد مثلا بليغا، ليقول:

"إذا أصبح ابن آدم، فإن الأعضاء كلها تستكفي اللسان وتقول اتق الله فينا فإنما نحن بك.. إن استقمت استقمنا، وإذا اعوججت اعوججنا".. !!

ويذهب إليه الصحابي الجليل سفيان بن عبد الله" رضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين. فيقول له: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به فيجيبه الرسول: قل : ربي الله، ثم استقم.

ويستأنف الصحابي السؤال : يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف عليّ؟؟ فيأخذ الرسول بلسانه ويقول : هذا..

ويزيدنا النبي – عليه السلام – إدراكا لأهمية «اللسان» وخطره فيقول:- "**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى، لا يلقى لها بالا.. يرفعه الله بها في الجنة.. وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوى بها في النار سبعين خريفا.. !!**

حين تنافق حاكما، أو ظالما بكلمات كاذبة تتملق بها غروره وسلطانه فأنك تسقط من عين الله فورا، وتبوء بإثم هذه الكلمات.

وحين تجامل أحداً في الباطل على حساب الحق، فإن كلماتك تتحول إلى أغلال موثقة، وخطايا موبقة. وحين تطلق لسانك كالوباء في أعراض الناس وسيرهم .. أو تجعلهم مادة لسخريتك وتهكمك ، فإنك بهذا تواجه من غضب الله وسخطه مالا طاقة لك به.. !!

لقد سأل سائل رسول الله قائلا : **أرأيت لو ذكرت أحداً – في غيابه – بسوء هو فيه ؟؟**

فأجابه صاحب الخلق العظيم – «**إن ذكرته بما هو فيه فقد اغتبته.. وإن ذكرته بما ليس فيه فقد بهته**»... !!!

هذا هو اللسان في ضرره وخطره ..

وهذا هو ، حين يكون حاديك إلى رضوان الله، ومحبة الناس، وحين يقودك ويرديك في سخط الله، وبغض الناس..!!

إن العاقل يعقل لسانه بقدر ما معه من عقل.. وإن الأحمق يطلق عنانه ولجامه بقدر ما معه من حمق.. !!

وما أكثر ما وصى رسول الله عليه الصلاة والسلام قائلا: «**أمسك عليك لسانك**»

وأوصى قائلاً: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر: فليقل خيراً أو ليصمت..**»

لقد سمع – عليه السلام – صديقه العظيم «أبابكر» رضي الله عنه، يلعن رجلا في لحظة غضب وهو الأواه الحليم، فقال له الرسول: ما هذا يا أبا بكر؟ لعانين وصديقين ..؟؟ !!

فقال «الصديق» أسفا ومعتذرا: لا أعود لمثلها أبدا يا رسول الله.. !!

فيا أتباع محمد وأبناء القرآن والإسلام .. تعالوا نذكر المثل الجليل الحكيم الذي ضربه الله في قرآنه فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ .. [سورة إبراهيم : ٢٤ / ٢٦]

تعالوا نكن بكلماتنا الشجاعة في الحق والعادلة في القصد والطيبة والحانية نور الحياة وعبير الوجود... !!!

***

هذا، هو الطريق

في كلمة سابقة تحدثنا عن «النوايا» وعن دورها العظيم والمجيد في ترشيد الطاعة والعبادة.. وفي ترشيح المؤمن وأعماله للقبول، وللفوز بما أعد الله الحنان المنان الكريم لصالحي عباده مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ويمتد بنا الحديث لنستشرف بقية مما للنوايا والبواعث من جلال وجمال.. !!

إن الذين ذاقوا حلاوة النية الصالحة يحدثوننا عن ذلك المذاق الفريد !!

وما أروعهم وهم يربطون طهر السرائر بجلال الحرية.. !!

يقول «بشر الحافي» رضي الله عنه

«من أراد أن يذوق طعم الحرية، ويستريح من العبودية: فليطهر السريرة بينه وبين الله تعالى».. !!!

ما أوضأ هذه الكلمات، وما أحلاها وما أثراها !!

فالعبودية فعلا تجد وطنها في سرائرنا، قبل أن تجده في علانيتنا وتصرفاتنا..

ولن تجد أبداً إنساناً يسلك مسالك الذلة والخنوع ويتصرف تصرف العبيد إلا إذا كانت

(*) "المسلمون" العدد الثاني والعشرون – السبت ١٩-٢٥شوال ١٤٠٥هـ / ٦-١٢يوليو ١٩٨٥م.

سريرته قد تحولت إلى مباءة من الهوى والغرض والأنانية والنفاق

أي أن" السريرة" خلت من مشاعر الاعتداد والترفع والعظمة، في نفس الوقت الذي خلت فيه من النوايا الصالحة، والبواعث الشريفة.. ثم حين امتلأت بعفونة النوايا الرديئة، والبواعث المتهافتة الذليلة.. !! هكذا وجد العارفون الصالحون المعنى الحقيقي للحرية ونهلوا من رحيقها المختوم..

عرفوا أنهم أحرار بقدر ما يحررون بواطنهم، وسرائرهم، وبواعثهم من أغراض الحس، وأمراض النفس، والتهالك المبتذل، والطمع الرخيص.. !!

وأحرار بقدر ما يطهرن بواطنهم وسرائرهم من النفاق والخوف والإمعية.

وذلك كله يعني في التحليل النهائي له أن نشحن أنفسنا وسرائرنا بأطيب البواعث وأكرم النوايا..

وإذا نحن ظفرنا بهذا النوع المجيد والطهور من النوايا الصالحة وجدنا أنفسنا في نفس اللحظة ولنفس السبب ربانيين، ومستجيبين لقول رسولنا الأكرم صلى الله عليه وسلم: «تخلقوا بأخلاق الله.. إن ربي على صراط مستقيم»... !!

إن الناس يحيلون الحياة إلى غابة، لأنهم يحملون طبائع وحوش الغابة..

وهذه الطبائع أنجبتها النوايا الخبيثة والبواعث المتوحشة التي تركوها تعشش في سرائرهم وضمائرهم، فأفرزت لهم عادات شرسة وقبيحة أمسوا لها عبيدا، وأمسوا لها وقوداً.. !!

وما أجمل وأذكى قول «الشعبي» رضي الله عنه..

«تعايش الناس بالدين زمناً طويلا، حتى ذهب الدين من نفوسهم..

«ثم تعايشوا بالمروءة، حتى ذهبت المروءة..

«ثم تعايشوا بالحياء، حتى ذهب الحياء..

«وهم الآن يتعايشون بالرغبة .. والرهبة !!»

«وسيأتي بعد هذا ما هو شر منه» .. !!!

قال هذا قبل قرون خلت .. فكيف الحال بعد هاتيك القرون؟؟

إلا أنه لا خير يرجى ممن طوى نفسه وجوانحه وسرائره على نوايا اللؤم والفساد

إنه بطول معايشته هذه النوايا يتحول إلى «عاهة»..

بل قولوا: يتحول إلى «وباء»..

من هنا جاء اهتمام القرآن واهتمام الرسول بالنوايا الطاهرة، والبواعث النظيفة المتسامية !!

لقد كان سلفنا الصالح يبلغون بتحرير نواياهم وبواعثهم مبلغا بعيدا من التجرد لله وللحق، وللخير .. كانت نياتهم المحررة والمطهرة ترفعهم إلى المقام الفريد والبعيد ـ مقام التجرد لله، وفي الله.

وكانوا يرسمون حدود هذا التجرد بقولهم :« ألا يبقى لك منك شيء» !!!

ونحن لا نطمع في أن نرقى رقيهم، ولا أن نتوقل علياءهم، ولا أن ننزل منازلهم ..

ولكن ذلك لا يعفينا أبدا من ألا نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.. لا يعفينا أبداً من ضرورة اجتثاث النوايا وليدة الهوى والطمع والحقد من سرائرنا.. ثم ملء هذه السرائر بالنوايا الشريفة، التقية، النقية الورعة ..إذ لن نكون مؤمنين حقا.. بل ولا مسلمين حقا إلا إذا أحرزنا هذا النصر في معركتنا مع الشيطان، ومع مغريات الباطل، وإفك الضلال..

ألا فلنفتح أبصارنا وبصائرنا على حكمة هذا الدعاء الذي كان رسولنا الكريم يردده دائما ويرطب به لسانه آناء الليل، وأطراف النهار: «يا مقلب القلوب ، ثبت قلبي على دينك»

فالقلوب هي مستودع النوايا والعزمات .. وثبات القلب على الدين، يعني الثبات بالنوايا أولا .. وبالنوايا ثانياً.. وبالأعمال ثالثاً.. على كل ما جاء به هذا الدين من عظائم، ومكارم وشعائر وهدى ونور..

هنا النجاء.. وهنا الخلاص..

وهذا هو الطريق... !!!

* * *

واذكروه كما هداكم

كانت السيدة التقية النقية الورعة رابعة العدوية تقول استغفارنا يحتاج إلى استغفار..

كانت تقول ذلك، وهي التي قالت من قبل :

ليس لي في الجنان والنار حظ أنا لا أبتغي بربي بديلا

أي أنها قالت ذلك، بعد أن وصلت في معارج الروح والنفس إلى أعالي مراقيها..

قالت: استغفارنا يحتاج إلى استغفار

فماذا نقول نحن – أنا وأنت والآخرون..

كل الذين عرفوا الله حق معرفته، وقدروه حق قدره كانوا على هذا النمط الرفيع من التعامل مع الكبير المتعال .

(*) "المسلمون" العدد السادس والعشرون – السبت ٢٧ –٢٣ ذي القعدة ١٤٠٥هـ / ٣-٩ أغسطس ١٩٨٥م.

حتى قال أحدهم، ولعله الشيخ «أبومدين» :

" كلما عظم المطلوب في قلبك، صغرت نفسك عندك، وتضاءل الجهد الذي تبذله في تحصيله.. وكلما شهدت حقيقة «الربوبية» وحقيقة «العبودية» وعرفت «الله» وعرفت "النفس"،وتبين لك أن ما معك من بضاعة، وما تقدم من طاعة، لا يصلحان للملك الحق.. وإنما يتقبله بكرمه، وبجوده، وبتفضله.. كما يثيبك عليه بكرمه، وجوده، وتفضله"

نحن إذن لسنا أهلا، ولن نكون قط أهلا للمن على الله ..

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .. [الحجرات : ١٧]

كل نعمة معك ؛ فهي عطاء من الله لك.. حتى عبادتك مهما تستقم طريقتها، وتبلغ ذروتها فهي نعمة وتوفيق وتفضل شكرها الواجب أن تعترف بمصدرها ومانحها وتقول – في خشوع وتقوى – ما علمنا الله سبحانه وتعالى أن نقول في هذا الموطن ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ . [الأعراف ٤٣]

يقول : " أهل الله " – إن أرباب العزم والبصائر أشد ما يكونون استغفاراً في أعقاب الطاعات.. " !!

ويوضح الامام «ابن القيم» هذا المنزع الروحي والفكري، فيقول : «لقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته أن يستغفروه عقب إفاضتهم من عرفات، وهو أجل المواقف وأفضلها، فقال عز وجل : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ۝ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾ [البقرة : ١٩٨ ، ١٩٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران : ١٧] قال «الحسن» مدوا الصلاة إلى السحر.. ثم جلسوا يستغفرون «الله» عز وجل..

وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سلم في الصلاة استغفر الله ثلاثا .. ثم قال: اللهم انت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام..

وأمره الله سبحانه وتعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة، والقيام بما عليه من أعبائها وقضاء فرض الحج، واقتراب أجله، فقال سبحانه في آخر سورة أنزلت عليه: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝ ﴾ . [سورة النصر]

هكذا يؤدب العظيم الوهاب عباده المؤمنين بأن يتبعوا الطاعات والعبادات باستغفاره سبحانه استغفاراً يعوض العبادة عما عسى أن يكون قد تسنها من غفلة، أو زهو أو تقصير غير محسوس ولا منظور كما يذكر العابد بحقيقة عبوديته، وبأنه أسير نعمة الله عليه، وبأنه كما قال من قبل الصحابي الجليل عبدالله بن رواحة :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

إنه لا يحبط العمل الصالح شيء مثل أن ترى نفسك فيه وأن تلحظ خلاله جهدك الذاتي منفصلا عن عون الله ونعمته وهداه..

من أجل ذلك نراه سبحانه يضمن أمره لنا بذكره تذكيره إيانا بأنه الموفق والهادي والمعين فيقول جل جلاله ﴿ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٨]

إذن فهو – أولا – الذي هدانا .. وبهدايته هذه نصبح مؤهلين لذكره ثم بتوفيقه وبعونه نأخذ مكاننا بين الذاكرين والعابدين..

أليس هذا ما تعنيه الآية الكريمة التي نرددها صباح مساء .. ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ [الفاتحة: ٥] .

ويقول نبي الله «داود» عليه السلام : يا رب كيف أشكرك ؟؟ وشكري لك نعمة منك تستوجب شكراً آخر..؟ !"

هذا منطق العارفين وهذا مقامهم..

هؤلاء الذين يذكرون الله كما هداهم .. فكان شكرهم له - سبحانه - إنما هو تحية لهداه أيامهم .. والتبرؤ من كل حول لهم وطول..

وقوله سبحانه: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة : ١٩٨] يرسم الحد الفاصل بين الهدى والاهتداء..

فالهدى عطاء الله .. والاهتداء سعى العبد .. ومن ثم يجيء الاهتداء بعد الهدى، لأنه ثمرته ونتاجه..

ومن ثم أيضا، يحمل عمل المسلم وعبادته من سمات الصلاح والقبول بقدر ما يحمله قلبه من المعرفة الصادقة بالله.. ورؤية النعم جميعاً بما فيها الهداية والنسك والعبادة من خلال المنعم الوهاب.. لا من خلال عمل الإنسان.. مهما يكن حظه في أن يطيع ويعبد وينيب..

* * *

حتى نبعث رسولا..

لما كان الله سبحانه وتعالى، لم يخلق عباده عبثا.. فكانت حكمته وعدله يقتضيان ألا يتركهم سدى.. فأرسل إليهم رسله، ونزل عليهم كتبه .. عرفهم الخير من الشر، والحق من الضلال .. ثم وعد الصادقين برضوانه، وتوعد المفسدين بعقابه!!

وخلال ذلك سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه .. ووطأ لهم أكناف كل شيء. وجعل الإنسان سيد كوكبه الذي يعيش فوقه .. وأعطاه زمام تسييره، وزمام مصيره..!!

ومن فيض رحمته قال: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ !! [الإسراء : ١٧] ولم يفاجئ الأقوام من البشر برسل من الملائكة، حيث لا يستطيعون لهم فهما، ولا يستطيعون تحقيق القدوة بهم.. إذ شتان من خلق من نور ومن خلق من طين!!

هنالك اصطفى سبحانه رسله إلى الناس من ذوات الناس يأكلون مما يأكلون ..

(*) "المسلمون" العدد السابع والعشرون – السبت ٢٤ –٣٠ ذو القعدة ١٤٠ هـ/ ١٠-١٦ أغسطس ١٩٨٥م

ويلبسون مما يلبسون يرضون، ويغضبون .. ويمشون في الأسواق .. ثم تجلى عليهم في عدله المطلق فقال عز وجل: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥].. ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ .. [النساء: ١٦٥]

عندما سمع أعرابي قارئاً يتلو قول الله سبحانه: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٣] وقع مغشيا عليه وهو يصيح: يا ويلنا!! من أغضب الجبار حتى يقسم ..؟!!

وما كان أحراه أن يشهق شهقة أخرى، حين يسمع قول الله سبحانه: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾.. [النساء : ١٦٥] فمن ذا الذي يملك مع الله حسابا أو عتاباً..؟!

ومن ذا الذي يرفع في وجه الله حجة يحتج بها عليه، أو يساوم بها بين يديه..؟!

لكنه مع ذلك نزل عدله إلى مستوى عباده، أو فلنقل: رفع عباده إلى مستوى عدله، مفترضا لهم الحق في أن يحتجوا حين يتركون بلا هداة يدعونهم إلى سواء السبيل..!!

حتى إذا ساءلهم يوم القيامة – ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ ؟! [الملك :٨] يأتيهم الجواب الحازم والعادل: ﴿ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ !! [الملك : ١١] ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ..!! [الزخرف : ٧٦] إن رسل الله يستمدون حقهم في الإجلال والتوقير، وفي الطاعة والولاء من جلال العلي الكبير الذي أرسلهم نوراً وهدى للناس..

والإعراض عنهم، إعراض عن الله.. والشغب عليهم لا يجيء إلا من الذين لا يرجون لله وقارا.. من أجل ذلك يقفهم الله الحسيب الرقيب بين يديه يوم القيامة، ملقيا عليهم هذا السؤال: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ ..؟! [الأنعام: ١٣٠] فماذا معهم يومئذ من قول يدرأون به عن أنفسهم مغبة التقصير

أينكرون؟ ولكن أمام من؟

هنالك يجيء جوابهم المفلس من خلال ندمهم المجتر:

﴿ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ ﴾ ..!! [الأنعام : ١٣٠] وهكذا فالله – إذن – يحاكمهم إلى أنفسهم !! وعلى الرغم من أنه – سبحانه وتعالى – لا يسئل عما يفعل فإنه لا يحاسب الناس بهذا السلطان المطلق، ولا يجازيهم بوصفه ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج : ١٦] بل يؤاخذهم بمنطق الفطرة التي زودهم بها، وجعلها "البوصلة" التي تحدد لهم طريق المرسلين..!!

وحتى لو حاسبهم من منطلق أنه لا يسئل عما يفعل لما أدركهم منه أدنى قدر من الحيف والظلم..

ذلك أنه لم يختص نفسه بهذا السلطان المطلق تجنيا، ولا علوا، بل استحق هذا السلطان لكمال حكمته، وعلمه، وتنزهه المطلق عن أي غرض، أو خلل، أو عبث، أو رغبة في الانتقام.. فلقد صدق – سبحانه – إذ يقول لعباده :- ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء : ١٤٧] .. ؟ !

وإذن فالرسل هم الميزان .. والسعداء منا هم الذين لا يطغون في الميزان..!!

وإذن فهم، – دون سواهم – حجة الله على عباده.. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر".. ولكل امرئ حسابه – ثواباً أو عقاباً.

ولقد هدى الرسل المرسلين إليهم إلى خير دنياهم وأخراهم " فماذا بعد الحق إلا الضلال؟!

ولو أن " الله سبحانه كان قد ترك الناس لفطرتهم، وعقولهم، لكانوا ملزمين عن طريقهم بمعرفة الله من خلال آياته في الآفاق وفي أنفسهم ..

لكنه مع ذلك أمدهم – مع الفطرة والعقل – بخير ما اصطفى واجتبى من رسله الهادين، وأنبيائه المعلمين..!!

ولقد ختم الله رسله بسيدنا "محمد" ليكون حجة الله" الخاتمة".

وغمرنا الله بفضله، فقدر لنا أن نكون معه شهداء على الناس..!!!

انظرونا، نقتبس من نوركم!!!

ما أحسب أن ثمة نعمة تفوق نعمة النور» الذي يودعه "الله سبحانه" قلوب المؤمنين وأفئدة العارفين..

وما كان عبثاً تكرار هذا الدعاء على لسان "الرسول" صلى الله عليه وسلم "اللهم اجعل في قلبي نوراً .. واجعل لي منك نوراً "!! وما بشر الله عباده الصالحين بأفضل من هذه البشرى حين قال - سبحانه - عنهم : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [التحريم : ٨]

ثم حين صورهم، وصور مكانتهم يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد...!!

يوم تتعثر خطى الظالمين في ظلمات ما أركسوا فيه، يوم كانوا في دنياهم لا يعرفون لهم رباً.. ولا يوقدون في قلوبهم المعتمة شمعة ..!!!

والآن وقد جاءهم ما كانوا يوعدون فإنهم راحوا يتخبطون في ظلمات من فوقها

(*) "المسلمون" العدد الثامن والعشرون - السبت ١-٧ ذو الحجة ١٤٠٥ هـ / ١٧-٢٣ أغسطس ١٩٨٥م

ظلمات .. يقولون : ﴿ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ [الأحزاب : ٦٦] يومئذ، وهم في حلكة اليأس، وظلام النفس، وخيبة الأمل يجرون مهطعين ومسرعين وراء "القناديل" الإلهية.. ووراء الأضواء المبهرة المتألقة على جباه الذين كانوا من قبل بهم يستهزئون..!!

يلهثون وراء النور المنبعث من أهله.الذين استجابوا لله، وللرسول ويصرخون من جوف الظلمات، منادين حملة النور في قلوبهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم :- ﴿ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ ﴾ .. [الحديد : ١٣] فتصفع وجوههم الباسرة بهذه الكلمات الساخرة.. ﴿ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورًا ﴾ ..!!! (الحديد : ١٣)

وهل لهم يومئذ "وراء" يرجعون إليه..؟!

وهل يلوى – اليوم – أحد على أحد في هذا الطريق ؟؟ وهل يلتفت – اليوم – رفيق إلى رفيق؟؟؟!

وينادون الذين نجوا بإيمانهم، واستضاءوا بنورهم ": ﴿ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ !! [الحديد : ١٤] وغالباً ما سيكون هؤلاء المنكفئون في الظلمات من المنافقين ..!!

يقول «حذيفة» رضي الله عنه، وقد سمع من يدعو ويقول : اللهم أهلك المنافقين .. «يا ابن أخي لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قلة السالكين»..!!!

ويقول آخر من العارفين " " لو خلق الله للمنافقين ذيولاً وأذناباً – ما وجد الناس أرضاً يمشون عليها..!!

والنفاق هو الظلمات التي تجتال المنافقين يوم القيامة ، وهو جزاء من جنس العمل ..!!

لأن الوضوح نور ... وهم قد عاشوا حياتهم نافرين من الوضوح متبدين أمام الناس في أزياء تنكرية وأقنعة كاذبة مستخفين وراء أسوار من الظلام ليس لها نوافذ ولا أبواب ..!!

وما أصدق ما وصفهم به «الإمام ابن القيم» رضي الله عنه حين قال :

"إذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه قاسية.. وإذا سمعوا الباطل كانت آذانهم واعية ..

"إذا عاهدوا ، لم يفوا .. وإن وعدوا، أخلفوا .. وإن قالوا ، لم ينصفوا .. وإن دعوا إلى الحق، وقفوا.. وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله، وإلى الرسول ، أعرضوا وصدفوا "..

كان أحد أصحاب الرسول يقول في دعائه :- "اللهم إني أعوذ بك من خشوع النفاق..!!

ولما سئل : وما خشوع النفاق..؟؟ قال أن يرى البدن خاشعاً، والقلب ليس بخاشع .. وهكذا المنافقون تماماً : « تعجبك أجسامهم وإن يقولوا: تسمع لقولهم»!!

أفيحق لهؤلاء الذين يداهنون كل صاحب سلطة وكل ذي ثراء عريض أو جاه مفيض أن يكون معهم نور..؟؟

وأني لهم ذلك وقد مردوا على عيش الظلام ؟ !

أنى لهم ذلك، وإنهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ..؟!

وهل ستفيدهم شيئاً، أصواتهم النائحة، والنباحة يوم تبلى السرائر ..؟! وإذ هم ينادون السائرين في موكب النور: ﴿ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ ﴾ ؟!! [الحديد : ١٣] وهل يملك الآخرون أن يقبسوهم شيئاً من أنوارهم ،..؟؟

أبداً ، لا يملكون .. فالأمر يومئذ لله، ولكن المنافقين لا يعلمون!!

* * *

عندما يفرح الله ! !

لا أظن أن أحدا من المرسلين – عليهم صلاة ربنا وسلامه – قد ضمخ علاقة الانسان بالله بعطر الحب، والرجاء، والأمل، مثلما فعل «سيدنا محمد» صلى الله عليه وسلم..

ولقد صدق فعله قوله حين قال : « **إنما أنا رحمة مهداة**»!!

لكأنه كان بأحاديثه وتوجيهاته ولفتاته الذكية يرى ذروة مسئوليته في أن يملأ قلوب العباد بحب الله، وبإحسان الظن به سبحانه، وألا يقنطوا من رحمته، ولا ييأسوا من روحه.. وكان ينتهز المناسبات ليحدث أصحابه، وليحدث معهم الأجيال جميعاً عن رحمة الله وحنانه وشوقه إلى الغائبين من عباده. أولئك الذين اجتالتهم شياطين الإنس والجن، وسرقتهم من رحاب الله..!!

ذات يوم، وهو يعبر شوارع المدينة يحف به نفر كريم من أصحابه، رأى أما تحتضن رضيعها في فيض من الحنان والحب .. وانفرجت أساريره عن ابتسامة كضوء الفجر.

(*) "المسلمون" العدد التاسع والعشرون – السبت ٨-١٤ ذو الحجة ١٤٠٥هـ / ٢٤-٣٠ أغسطس ١٩٨٥م

وقال لأصحابه الحافين حوله وهو يشير بيده نحو الأم العاشقة: "أترون هذه طارحة ولدها في النار..؟!

قالوا: أبدا يا رسول الله..

قال: « والذي نفسي بيده الله أرحم بعبده المؤمن، من هذه بولدها»..!!

في هذا المشهد الذي لا يحتاج إلى وسائل إيضاح انتهز الرسول المناسبة ليصور في أصدق وأليق صورة رحمة الله ذي الجلال والإكرام .. وهي صورة لا تملأ الأفئدة أملا في هذه الرحمة وحسب، بل تتركها مفعمة بحب كبير لهذا "الرب" المفيض عطاؤه.. والغدقة نعماؤه..!!

وهكذا، كان التيسير، لا التعسير.. والتبشير لا التنفير.. وصيته الحانية التي يوصى بها أصحابه جميعاً!!

كان يدرك – في رؤية ثاقبة – بؤس الإنسان كما يدرك عظمته !!

كان يعلم أن هذا الذي استخلفه الله في الأرض فصار بهذا الاستخلاف عظيماً.. يواجه من الآلام والمشقات والأهوال، ما يجعله بائساً..!!

فهو في آن واحد – «البائس العظيم»..!!

ومن ثم فقد أخذ الرسول على عاتقه مسئولية البث المستمر لمحبة الله، ورحمته وبره، وحنانه.. وإذا كان سفر التكوين في العهد القديم – التوراة – يبدأ قصة الخلق بأن الله بعد أن خلق آدم ورآه يمشى بين يديه متبختراً مزهواً، عاد وندم على خلقه !!!

أقول إذ كان هذا هو شأن الإنسان عند التوراة، أو عند الذين كتبوها ، فإن له شأناً آخر عند الإسلام – قرآنه ، ورسوله –

شأنا يبوئه الدرجات العلى..

وحسبه في هذا المقام أنه مصدر فرح لله...!!!

فيروى الإمامان الجليلان – البخاري ومسلم – عن "أنس بن مالك" رضي الله عنه،

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم، كان على راحلة بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها .. فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته .. فبينما هو كذلك إذا بها قائمة عنده، فأخذ بخطابها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي، وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»..!!

فالله إذن يفرح بنا، وينشرح قلبه لنا.. أهناك بعد هذا دليل على مكانة الإنسان ومنزلته عند الله..؟!

ترى كم يكون حظنا من اللؤم والضعة والجحود، إذا نحن ضننا على الله بهذا «الفرح» الذي يترقبه منا، ويرضيه عنا ..؟! عندما يطرق أحدنا أبواب الله بالتوبة الوادعة، والضارعة، تهتز سدرة المنتهى غبطة وانتشاء معلنة عودة التائه إلى دليله، والغائب إلى داره.. ويفرح الله – كما قال الرسول – بالوافد الجديد، وبالضيف العزيز والمجيد، فرحاً لا تطاوله كل أفراح الدنيا، وأفراح الناس، وأفراح الحياة..!!

فالله الذي سبقت رحمته غضبه، وحلمه عقوبته، وعفوه مؤاخذته..

الله الذي كل الفضل بيده.. وكل الخير منه.. وكل الجود له..

الله الذي ينادينا في حنان رطيب ودود، فيقول: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ ؟![النساء : ١٤٧]والذي يقول: «من أتاني يمشي أتيته هرولة»..!!

هذا الإله العظيم والكبير الذي يوسعنا فضلا، ويغمرنا إحساناً وجوداً.. ينتظرنا على شوق، ويدوى بيننا نداء ملائكته:– من العائد إلى البيت ؟؟!!

أجل.. من العائد إلى البيت ..؟!

من يستفتح الباب، فيفتح له..؟؟

من يفرح الله بتوبته وعودته ..؟!

اللهم اجعلنا من التوابين ومن العائدين..

* * *

الله أعلى وأجل

حين نسى الرماة "يوم أحد" أمر رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم ألا يغادروا مواقعهم، ونزلوا مهطعين إلى ساحة القتال بعد أن رأوا جيش الشرك يترنح ويولى الأدبار– تعرى ظهر المسلمين من شطر الجبل، ورأى فرسان قريش ثغرة لاحبة يستطيعون مفاجأة المسلمين منها بما ليس في حسبانهم.

وفعلا، نفذت الخطة بنجاح، وفوجئ المسلمون بضربة مباغتة وشرسة ردت ميزان النصر إلى وراء.. إذ حوصروا بين الفرسان من خلف والمشاة الذين جمعوا شتاتهم وعادوا إلى أرض المعركة يجابهونهم من أمام.

واستؤنف القتال في ضراوة لاهثة وبأس شديد، وواجه المسلمون محنة قاسية ورهيبة.. ولا أقول : هزيمة .. لأنه لم يحدث قط أن هزم المسلمون في قتال كان قائدهم فيه الرسول العظيم. هكذا يعلمنا "مولاي محمد على" الفيلسوف الهندي المسلم رضي الله عنه وأرضاه.

(*) "المسلمون" العدد الثلاثون – السبت ١٥-٢١ ذو الحجة١٤٠٥ هـ / ٣١ أغسطس – ٦ سبتمبر ١٩٨٥م

فهو يرفض اعتبار ما حدث في غزة "أحد" هزيمة.. ويراه مجرد محنة .. ويقول: إنه بكل المقاييس العسكرية لا نجد أنفسنا أمام هزيمة.

فالجيش القرشي المعادي لم يحتل شبراً واحداً من أرض الدولة المسلمة.. ولم يدخل عاصمتها .. ولم يأسر أسيراً واحداً.. ولم يجهز على القيادة المسلمة .. بل ولم يقتل من المسلمين أكثر مما قتل المسلمون منه.. ثم ولى الأدبار وأمعن في الهرب حين وجد المسلمين يهرولون وراءه.. فأين هي الهزيمة ؟ إن المسلمين لم يهزموا أبداً في أي غزوة قادهم فيها نبيهم. وصدق "مولاي محمد علي" وجزاه الله خيراً..

هذه لفتة عبرت خاطري، بيد أنها ليست موضوع هذا المقال.

أما موضوعه فيأتي في ختام ما حدث يوم «أحد» العظيم.

ذلك أن قائد جيش الشرك يومئذ «أبا سفيان» وقف مزهواً بنصره الرخيص، ونادى بأعلى صوته: «عل هبل» – بضم الهاء وفتح الباء– ونادى الرسول عليه السلام أصحابه : أجيبوه، وقولوا: «الله أعلى وأجل».

ذكرت هذا الموقف ، وهذا الهتاف العلوي – ودائما أذكرهما – كلما أفقت من غيبوبة خواطري حين أديرها حول أمتنا العربية والإسلامية.. حيث يقتحم سمعي نعيق قادم من قريب ومن بعيد، يقول : «اعل هبل»وأكاد أكذب سمعي فأرسل البصر كرتين صوب مصادر هذا النعيق القادم .. فأرى الغربان السود تملأ الزمان والمكان.

في كل بلد من بلادنا – إلا من رحم ربك – "هبل" يتعبد الناس. ويستعبدهم .. ويقول لهم :« ما علمت لكم من إله غيري».

ويسألهم: ما حاجتكم إلى إله بعدي؟ ألستم ترجون إلها يرزقكم، ويرفعكم، ويحييكم.. وتخافون إلهاً يفقركم، ويضعكم ، ويميتكم؟ فهأنذا أفعل – أغني وأفقر.. أرفع وأضع.. أحيي وأميت!

مشانقي مصوبة.. وعطاياي موهوبة.. ودور الضيافة التي يسميها خصومي سجوناً

ومعتقلات، مفتحة الأبواب، واسعة الرحاب، شهية الرضاب.

فماذا ترجون بعد، وإلام تطمحون؟

ويصغى قطيع المنافقين والمنتفعين والمجرمين لهذا التمجيد، فيصيحون في مثل نهيق الحمير، ونعيق الغربان: "اعل هبل".

فيتنفس "هبل" تياهاً ومزهواً وثملاً بنشيد القطيع!! ويزداد في الأرض علوه وفساده !!

الله يلعنك، يا كل "هبل" في ديار العرب وفي بلاد الإسلام..

الله يلعن رجسك .. و يفنى بأسك.. ويقصم ظهرك.. ويذهب ريحك.. ويسوى بالتراب قدرك.. ويجعلك عبرة لمن أراد أن يتذكر أو يخشى..

فلينعق منافقوك بتمجيدك.. ولتعو ألسنتهم الكاذبة الخاطئة ولتلعق حذاءك الدنس .. تقربا وزلفى.. أو نفاقاً وخوفا.. فما أنت إلا صنم مهين..

ومهما يرتفع نهيق صنائعك "اعل هبل" فهناك الملايين تصدح بقول نبيها العظيم: «الله أعلى وأجل»

ويا كل «هبل» غره حلم الله، ومصابرة الشعب، أمامك يوم أسود من قلبك، وأنتن من ضميرك، وأقسى عليك من بغيك على الناس.

وللشعب – كل الشعب – يوم فتح قريب. ينكت فيه هبله وصنمه بأطراف أصابعه، ويهيله تراباً تحت أقدامه، وهو يردد قول الكبير المتعال: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] .

* * *

ورضوان من الله أكبر

عندما تحدث الله عن عباده المؤمنين قائلا:- ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [البينة : ٨] كان بهذه الكلمات يرفعهم إلى أعلى مكانة ومكان.

فمن نحن حتى نرضى عنه ..؟!

حين يرضى سبحانه عنا، فذاك تفضل منه وإحسان.. ولكن أن نرضى نحن عنه، ثم يقدر ويشكر هذا الرضاء.. فالأمر مختلف جداً.. !! حتى ليبدو وكأنه يتعاظم كل فهم وإدراك..

ألا إني لا أعرف آية أو حديثاً يرفعان قدر الإنسان كما ترفعه وتبوئه هاتان الكلمتان: "ورضوا عنه"..!!

ولقد سبق العارفون بالله الخلق جميعاً إلى إدراك ما تستسره الآية الكريمة من معنى وعطاء: فوقفوا أمام الله، بل جثوا بين يديه عرايا من كل حول لهم وطول، بل وعرايا من كل اختيار !! حتى قال قائلهم، وكأنه يتمثل المولى سبحانه يقول:

(*) "المسلمون" العدد الثاني والثلاثون – السبت ٢٩ ذو الحجة ١٤٠٥ هـ – ٦ محرم ١٤٠٦هـ / ١٤-٢٠ سبتمبر ١٩٨٥م

لا تدبر لك أمرا

فأولو التدبير هلكى

حقق الأمر تجدنا

نحن أولى بك منك !!

وهو طبعاً وقطعاً لا يدعونا إلى تجنب الأسباب، ولا إلى معارضة السنن التي جعلها الله قوانين تنظم الحياة.. إنما هو يخبرنا أن هناك فوق سبع سماوات، من استوى على العرش، وكل مقادير الحياة مطويات بيمينه.. وأن الذين يخرجونه من الحساب، يخطئون الحساب!! وأن ذكاء الإنسان إذا عمل بعيداً عن توفيق الله وعونه، كان كالمنبت، لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى.

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم، فالمخاوف كلهن أمان

كان أشرف الخلق صلى الله عليه وسلم، يكثر من هذا الدعاء: **"اللهم خِرْ لي واختر لي.. اللهم دبر لي فإني لا أحسن التدبير"..!!!**

وبمثل هذا الدعاء نقترب من معنى : "ورضوا عنه"..

فالرضا عن الله، يعني في جوهره وحقيقته أن تقف مع اختيار الله لك حتى ترى نعمه عليك فيما تكره، أكثر وأعظم من نعمه عليك فيما تحب..!!

وأصحاب هذا المقام هم الذين ينادى الله أنفسهم.

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر : ٢٧ - ٣٠]

انظروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يناجي ربه فيقول:

"ماضٍ فيَّ حكمك.. عدل فيَّ قضاؤك"!!

ما أعذبها، وما أرطبها، وما أطيبها من كلمات ..!! لقد اجتمع ذات يوم نفر من كبار العلماء والصالحين- هم - وهيب بن الورد، وسفيان الثوري، ويوسف بن أسباط.

قال الثوري: لقد كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم. أما الآن فوددت أني ميت، لما

أتخوف من الفتنة.

وقال يوسف بن أسباط: أما أنا فلا أكره طول البقاء..

قال الثوري: ولم تكره الموت؟

قال: لعلي أصادف يوماً أتوب فيه وأعمل صالحا..

كل هذا، وصاحبهم وهيب بن الورد، صامت لا يدلي في الحوار برأي.. مما جعلهم يتجهون إليه بهذا السؤال: أي شيء تقول أنت؟؟ فأجاب: أنا لا أختار شيئا.. فأحب ذلك إلي، أحبه إلى الله..!!

فقبله الإمام الثوري بين عينيه وقال: "روحانية ورب الكعبة..

فإذا رضيت قضاء الله لك – ساءك هذا القضاء أو سرك – فأنت بهذا ولهذا تكون من الذين قال الله فيهم ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾

ورضوان الله أكبر من كل مثوبة وكل نعيم.. ولنقرأ الآية الكريمة من أولها: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

فمن يبلغ منا هذه المنزلة.. الرضا من الله، والرضا عن الله.. فقد أوتي الحكم والخير، والفلاح.

وما أصدق قول "رابعة العدوية" رضي الله عنها إذ تقول: "إن أولياء الله هم أرضى عنه من أن يسألوه لأنفسهم، حتى يكون هو الذي يختار لهم"..!!

ولعلها استنبطت هذه الحكمة اليانعة من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "**إن الله بحكمته قد جعل الروح والفرح في الرضا واليقين.. وجعل الهم والحزن في الشك والسخط**"..

فيا من ترجون لقاء الله، وتودون رضوانه الأكبر

ارضوا عنه.. وارضوا به.. واتخذوه وكيلاً..!!

وكونوا عباد الله إخوانا

هكذا قال الرسول - صلي الله عليه وسلم- داعيا إلي الوفاق والسلام بين الناس كافة، وبين المسلمين بخاصة..

وللأخوة في منهج "ابن عبد الله" مكانها الأعلي وتبعاتها العظمي..!!

فالمسلم أخو المسلم- لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره.. وهو عون له وليس عونا عليه..

هو يستر عورته..ويقيل عثرته.. ويقبل معذرته.. ويكون له كروح الربيع...!!

لا يتلمس له العيب.. ولا يتربص به تربص الأفعي..لا يغتابه، ولا يرتابه... ولا يضن عليه بالكلمة الطيبة يقولها، في غيابه كما في حضوره..

ولا بالمساعدة في سرائه وضرائه.. يفرح لنجاحه وأفراحه .. ويأسي لإخفاقه وأتراحه..

وبعبارة واحدة، يري فيه أخاه الذي لم تلده أمه...!!

(*) المسلمون- العدد الثاني والاربعون- ١١-١٧ ربيع الاول ١٤٠٦هـ / ٢٣-٢٩ نوفمبر ١٩٨٥م.

وليس هناك ما يكشف في المسلم سلامة إسلامه مثل علاقته الباطنة والمعلنة بإخوانه..!!

وكلما ارتقي المؤمن، وامتلك من رفعة النفس وجمال الخلق نصيبا موفورا كلما وجدته صافي الأخوة نبيل الصداقة.. لا تجاه من يعرفهم فحسب، بل تجاه إخوانه- كل إخوانه- في الدين والعقيدة.

وهكذا نري أنبل الناس أخوه وأصدقهم مودة وأعلاهم كعبا في مجال الإخاء- هم «العارفون بالله» من أوليائه الكبار.

• أولئك الذين قال قائلهم وهو "السري السقطي" رضي الله عنه- "لا تتم المحبة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر يا ...أنا"...!!!

• ويقول قائلهم وهو "محمد الباقر" رضي الله عنه "هل يدخل أحدكم يده في جيب أخيه فيأخذ ما يريد"....؟

قالوا : لا... لم نبلغ هذه الدرجة بعد.. قال: إذن فلستم إخوانا كما تزعمون....!!!

• ويقول قائلهم، وهو "ميمون بن مهران" رضي الله عنه:- "ما بلغني عن أحد مساءة إلا كان إسقاطها عنه، أحب إلي من تحققها عليه.. وإن قال معتذرا: "لم أقل" ... كان ذلك أحب إليَّ من ثمانية شهود يشهدون عليه"....!!

• ويقول قائلهم وهو "بكر بن عبد الله المزني":- "لو قيل لي خذ بيد خير أهل المسجد، لقلت دلوني علي أنصحهم للناس.. ولو قيل لي:خذ بيد شرهم وأسوئهم لقلت: دلوني علي أغشهم للناس"..!!

• ويقول قائلهم وهو "عروة بن الزبير" رضي الله عنه: "لتكن كلمتك طيبة.. وليكن وجهك بسطا.. تكن أحب إلي الناس ممن يغمرهم بالعطاء"...!!!

من أين نهلوا هذه الحكمة وتعلموا هذا السلوك...؟؟

من سيدهم وسيدنا رسول الله الذي لا نعرف أن أحدا غيره من المرسلين، قال الله له:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ..!!

صحيح أنهم جميعا - عليهم صلوات الله وسلامه - كانوا بحكم اجتباء الله لهم واصطفائه إياهم فى الذروة من مكارم الأخلاق ولكن أن يجعل الله سبحانه من ذاته شاهدا على عظمة الأخلاق ومسجلا شهادته وتزكيته فى قرآن يتلى إلى يوم القيامة فذلك فضل اختص به خاتم الأنبياء .

ونحن نعلم أن الخير فى هذه الحياة قلما يجىء خالصا لا يشوبه سوء، ونعلم أن كل بنى آدم خطاءون وهنا تستبين حقيقة الأخوة وصدقها

وحين نادانا القرآن العظيم قائلا : ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ... [فصلت : ٣٤]

كان يدعونا بهذا إلى المستوى الذى نكون فيه إخوانا ودعاء أصفياء ومتسامحين رحماء

فإذا أنت لم تحسن فى تعاملك مع إخوانك إلا لمن يحسن إليك فإنك لا تأتى أمراً مذكورا

وهذه الحقيقة أيضا فهمها وأدركها العارفون

يقول " إبراهيم التيمى " رضى الله عنه - " إن الرجل ليظلمني فأرحمه "

ويقول " محمد الباقر " رضى الله عنه - إذا ظللت تدعو على من ظلمك ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول لك : " هناك آخر يدعو عليك فإن شئت استجبنا لك ، واستجبنا فيك .. وإن شئت وسعكما عفوى يوم القيامة "

يا لروعة الكلمات ..!!

حتى إذا ظلمك أخوك يجب أن تظل أنت مستمسكا بنقاء الإخاء

ألا إن أدب الإسلام فى مجال الأخوة والصداقة لفريد ومجيد ..،لآ ريب فى أن التنكر لهذا المنهج الخلقى الرفيع يشكل جانبا كبيرا من محنة المسلمين اليوم

فالعلاقات الإسلامية بل والإنسانية بيننا كأفراد وبيننا كجماعات وبيننا كدول وحكومات تفسر أزمة العالم الإسلامى كله

فى كل أمة من أمم هذا العالم ينبعث " أشقاها "

وكل دولة تتلمظ بالأخرى وكل جماعة تفتعل الأباطيل والأكاذيب والجهالات لتدين وتجرم أخرى بينما دينهم واحد وربهم واحد ورسولهم واحد وكتابهم واحد ..

وهناك على قمة الزمن يناديهم رسولهم " لا يلعن بعضكم بعضا ولا ترجعوا بعدى كفارا ، يضرب بعضكم رقاب بعض "

فليكن لنا من الله عون ومن رسوله شفاعة حتى نهتدى إلى الذى هو خير

إن ربى لطيف لما يشاء ....

* * *

واذكروه كثيراً لعلكم تفلحون!

كما أوصيتكم من قبل - في المقال الذي كان عنوانه - "مزيداً من الصلاة عليه" فإني أوصى نفسي وإياكم بالإكثار من ذكر ذي الجلال والإكرام..

وكما اقترحت عليكم أن يكون لكل منا مجلس منفرد، يخلو فيه مع نفسه، متوضئاً، ومستقبلاً القبلة، ويكون لهذا المجلس موعد لا نخلفه - مرة في كل يوم وليلته - نصلي فيه تحية ووفاء لمن أخرجنا من الظلمات إلى النور.. نصلي عليه ونسلم متأسين بصلاة ربنا وملائكته عليه..

كما اقترحت ذلك عليكم فيما يتصل بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فإني أقترح أن يتسع مجلسنا هذا، لذكر الله سبحانه وتعالى..

فمن استطاع أن يظفر بهذه "الخلوة" التي ينفرد فيها بنفسه الظامئة إلى نور الله، ورحمته، وعافيته، وقربه .. فليمض في خلوته هكذا..

يستغفر الله - مائة مرة - أو كما يشاء..

(*) المسلمون - العدد الثالث والأربعون ١٨-٢٤ ربيع الأول ١٤٠٦ هـ/ ٣٠ نوفمبر ٦ ديسمبر ١٩٨٥م

ثم يصلي على النبي – مائة مرة – أو كما يشاء..

ثم يذكر الله بالذكر المأثور" لا إله إلا الله" مائة مرة، أو كما يشاء..

والمثابرة عامل رئيسي في نجاح هذه الخلوة التي يحسن أن تكون ليلاً.. وتزداد حسناً وعطاءً إذا كانت قبل النوم مباشرة.. أو في الهزيع الأخير من الليل لمن اعتاد التهجد وصلاة الليل..

تصور نفسك في هذه الخلوة المباركة، في أي مكان من بيتك، وحيداً لا أحد معك سوى قيوم السماوات والأرض، ونورهما، ذي العرش المجيد..!!

وأنت مرهف السمع والبصر والحواس والفؤاد، تردد في خشوع وتقوى: "أستغفر الله العظيم، فإذا بلغت حظك منها، رحت ترتل في ولاء ووفاء وحب كبير: "اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه"..

فإذا بلغت حظك منها، انتقلت إلى خير ما قال الرسول والنبيون من قبله:" لا إله إلا الله" وتشبثت شفتاك بكأس دهاق من فيض نورها، وحبورها، ورأيت سمعك المرهف يصغي لحفيف أجنحة!! الله أكبر.. وكاد قلبك من النشوة يطير.. وكدت تصافح الملائكة عياناً..!!

آنئذ.. سيملأ روعك حلم طفولي عجيب، حين تفكر في أن تبحث عن المستحيل الذي يرد إليك السنوات الماضيات والليالي الخاليات لتبدأ معها من جديد، وليربو بها رصيدك من هذا النور الأسمى والعطاء الأوفى..

ولكن، لا تأسى على ما فات.. فالقبول عند ربك لا ترشحه السنوات .. ورب ساعة من ساعات القبول، يتجلى عليك فيها جلال الله ورضوانه، فإذا أنت من المقربين.. وإذا أنت من أوليائه المباركين.. !! وليس الطريق لمن سبق، بل الطريق لمن صدق..

المهم – يا قارئي العزيز – أن تذكر الله كثيراً..وجرب ما أقوله لك .. اجعل لك في كل ليلة "خلوة" مع الله.. تبدأها بالاستغفار، ما وسعك الجهد.. وتثني بالصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه، ما وسعك جهدك . وتختمها بـ "لا إله إلا الله" ما وسعك جهدك

وطابت بالذكر نفسك..

إن أهل الله، يسمون الذكر "منشور الولاية" أي أنك بالمواظبة عليه تأخذ مكانك – عاجلاً أو آجلاً – بين أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون..

هل سمعت قول الله سبحانه في حديثه القدسي: "**أنا جليس من ذكرني**"..؟؟

وهل سمعت نداءه الأقدس إيانا، وهو يقول: "فاذكروني أذكركم" ..؟؟ ومن نحن حتى نستحق شرف ذكره..؟؟

لقد كان أحد العارفين يعبر عن الحقيقة حين قال:- "لم يتفضل الله علينا بدعوته إلى ذكره، وإثابتنا عليه بالجنة، فحسب .. بل كان فضله قبل هذا أن سمح لنا بأن تردد ألسنتنا اسمه، وتستوعب قلوبنا ذكره"..!!

ولقد عبر عنها كذلك الشيخ "الكتاني" رضي الله عنه وعنهم أجمعين حين قال :- "لولا أن ذكر الله فرض علي: ما ذكرته إجلالاً له.. أو مثلي يذكره قبل أن يغسل فمه بألف توبة صادقة"..؟!!

لنقف أمام قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ..!!

وإذا كانت الصلاة فرضا وركناً من أركان الإسلام، أفلا يكون الأكبر منها، وهو الذكر فرضاً وركناً..!!

بلى .. وإن الذكر لكذلك..

بيد أن فرضية الصلاة، فرضية تشريع وتكليف .. بينما فرضية الذكر فرضية حب وتشريف..!!

من أجل ذلك قال رسولنا الأكرم – صلى الله عليه وسلم – "**أفضل ما قلت، أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله**"..

وهنا يبتلى الله عباده المؤمنين ويضعهم أمام أنفسهم في امتحان صدوق: أهم لا

يذكرونه إلا من خلال الفرائض المحتومة، تلمساً لثوابها، وتخلصاً من عقابها..؟ أم أن صدورهم تنطوي على حب كبير لله ربهم، الرحيم بهم، والحاني عليهم، ومن ثم فهم يرون في الذكر الخالص له سبحانه، فريضة قربى، وشكر، وحب، وعرفان...؟!!

بقول "أبو على الدقاق" رضي الله عنه :- "الذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى.. بل هو العمدة في هذا الطريق..

ولا يصل أحد إلى هذا الطريق إلا بدوام الذكر"...

ويقول " عون بن عبدالله" رضي الله عنه :- "ذاكر الله في غفلة الناس، كالرجل القوي الذي يظهر في "الفئة المنهزمة" فيمنحها التماسك والثبات.. ولولاه لدامت هزيمتها .. كذلك من يذكر الله في غفلة من الناس؛ لولاه لهلك الناس"...!!!

كانوا رضي الله عنهم جميعاً يعلمون علم اليقين المنزلة التي بوأها الله ورسوله، الذاكرين والذاكرات...

وكانوا يتهيأون لمجلس الذكر في "خلوتهم" مع الله أكثر مما يهيئونها لاستقبال عيد..!!

هذا" خليد بن عبدالله" رضي الله عنه كان قبل أن يستقر في الحجرة المذخورة لخلوته كل مساء، يقوم بتنظيفها فوق نظافتها.. ثم يعطرها ، ثم يغلق عليه بابها، ويجلس على مصلاة ويقول:

"مرحباً بملائكة ربي..

أما والله لأشهدنكم اليوم خيراً..

"خذوا باسم الله" ....!!!

ويمضي في ذكر يتعاظم العد والإحصاء...!!

يستغفر الله – مائة مرة – أو كما يشاء..

ثم يصلى على النبي – مائة مرة – أو كما يشاء..

ثم يذكر الله بالذكر المأثور" لا إله إلا الله" – مائة مرة – أو كما يشاء.

* * *

قالوا سمعنا ..

وهم لا يسمعون !!

عندما قال لنا الله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾

لم يكن – جل جلاله – يذكرنا بنعمته وفضله في تزويدنا بهذه الأعضاء من جسومنا..

إنما كان يذكرنا بمسئولية هذه الجوارح، وبمسئوليتنا عنها ..!!

أما ذكرها باعتبارها نعماً تفضل بها علينا، وأتم بها خلقنا، فقد حملته إلينا آيات أخرى كثار، نقتبس منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ومنها قوله عز وجل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧٨] وما أجلى حكمته وأجلها، حين يقرن السمع، والأبصار، والأفئدة معا، كلما جاء ذكر واحد منها...!!

(*) المسلمون العدد الرابع والأربعون ٢٥ ربيع الأول – أول ربيع الثاني ١٤٠٦ هـ / ٧-١٣ ديسمبر ١٩٨٥م .

فالسمع، والبصر، والفؤاد، تشكل في القرآن الكريم وحدة في الاستجابة، ووحدة في المسئولية.. وبينهما تآلف وثيق..!!

وحين يقترب أحدها من نور الله، يقترب الآخران معه..

وحين يتخبط في الضلال، يتخبطان معه..!!

لننظر قوله سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .. [الأحقاف : ٢٦] كذلك قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ .. [البقرة : ٧] وتحدث عن قوم فقال سبحانه: ﴿ وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ !! [الكهف : ١٠١] وعن آخرين فقال: ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾ .!! [الكهف : ٢٢٣] إن الذين يسمعون وفي نفس الوقت لا يسمعون .. هم كأولئك الذين قال عنه القرآن الكريم: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ..!! [الأعراف : ١٩٨] وهؤلاء، وأولئك كفروا بنعمتين من أجل نعم الله الوهاب.. فأصموا عن هداه آذانهم، وأغمضوا أعينهم.. !! وصفهم الله سبحانه بأنهم: ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال : ٢١] وأنت لا تسمع، حتى تعي ما سمعت والحق يحمل قدرة نفوذه ونفاذه.. وإذا وعينا، فإننا لا نجد منه مهربا. ولا من الإيمان به بديلا..

والذين يسمعون، أويبصرون، أو يقرءون، وهم عاقدوا العزم على أن يعرفوا الحق ليتبعوه – هم الذين يسمعون حقاً.. ويبصرون حقاً.. هم الذين لم تعم أبصارهم، ولم تصم آذانهم، ولم يتركهم الله في ضلالهم يعمهون..!!

وإنه لشيء مؤسف أن ينتهي أمر المسلمين إلى هذا المأزق، ويصابوا بهذه الآفة..!!

فحكامهم يسمعون القرآن ، حاملا إليهم وعيد الله للظالمين والمتسلطين.. وكأنهم لم يسمعوا ..!!

وشعوبهم، تسمع القرآن كل ساعة حاملاً إليهم وعيد الله للذين ﴿ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ..!! [النساء : ٩٧]

وحالة وعيدها وتقريعها للذين يتخلون عن نصرة المستضعفين من "الرجال، والنساء، والولدان، الذين يقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ ..!! [النساء : ٧٥] وأفرادهم، لا يستشعرون العزة التي كتبها الله لرسوله وللمؤمنين.. ولا يفرون إلى الله كما ناداهم جل جلاله في كتابه المبين.. ولا يحاولون أن يتذوقوا حلاوة الإيمان حتى يأنسوا بتبعاته.. ويعانقوا مسئولياته..

وهكذا أمسى المسلمون حكاما، وشعوباً، وأفراداً، من الذين قالوا ﴿ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ ..!! [الأنفال : ٢١] وإذن فهذه مأساتنا – نسمع ، ولا نسمع.. وننظر ، ولا نبصر.. وأضحى كل حظنا من الإسلام أننا نرتبط به شكلاً لا موضوعاً.. وهامشاً، لا جوهراً. وبعبارة واحدة طالما أرددها: لم يعد يربطنا به سوى شهادات الميلاد..!!

إننا في حاجة ملحة.. إلى "تجديد" شامل في حياتنا كلها – الدينية، والسياسية، والاجتماعية، والسلوكية.. بحاجة إلى أن تتجلى فينا من جديد روح روَّادنا العظام..

أولئك الذين استجابوا لله وللرسول.. وأولئك الذين كانوا رحماء بينهم. أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين.. يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم..

وأولئك الذين كانوا كالجسد الواحد. إذا اشتكى منه عضو، تداعت له سائر الأعضاء..

وأولئك الذين كانوا يعبدون الله بقلوبهم قبل أن يعبدوه بجوارحهم.. ويجدون في هذه العبادة غبطة الروح، وسكينة النفس، وبرد اليقين..!!

وإذا لم نستلهم من جديد هذه الروح الباعثة، فسنظل كاليتامى على مائدة اللئام..!!

إن أعداء الإسلام والمسلمين لكثيرون.. وإنهم ليزيدون، ولا ينقصون..!!

وكثيراً ما نقدم إليهم بأنفسنا فرص الغلبة علينا، والتمكن منا، والتنكيل بنا..!!

ذلك أننا لم نعد نقترب من الله، ولم نعد نحتفى بوصاياه، واجتالتنا الدنيا، وأغرقنا في كواذب الأماني..

وأصبحنا من الذين قالوا: (سمعنا، وهم لا يسمعون)..!!

فاللهم غفرا، واللهم نصرا.. على أنفسنا وعلى عدونا..!!

أيهم أقرب..!!

هل هناك في السماوات وفي الأرض وفيما بينهما أحد أقرب إلى الخلق من الرب ..؟؟

هل هناك من يسمع نبض الدم في العروق، ويعلم السر وأخفى، مثلما يسمع ويعلم السميع البصير الخبير..؟؟

هل هناك من يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويقول للشيء: كن فيكون سوى الله..؟؟

إنه ليخبرنا – سبحانه – أنه أقرب إلينا من حبل الوريد.. وأننا لا نكون ثلاثة إلا وهو رابعنا.. ولا خمسة إلا وهو سادسنا... ولا أدنى من ذلك ولا أكثر، إلا وهو معنا ...!!!

أذلك أمر يخيفنا ..؟ أم أمر يملأ أنفسنا طمأنينة، وأفئدتنا سكينة ..؟؟

وهل ذلك أمر يجعل من العقل أن نبحث عن غيره، ليرعانا ويحفظنا ؟؟

ونلجأ إلى غيره طالبين منه النجدة والخلاص..؟؟

إننا حين نفعل، يقرع أسماعنا هذا السؤال المهيب والرهيب من ذي الجلال والإكرام–

(*) "المسلمون" العدد الخامس والأربعون ٢ – ٨ ربيع الآخر ١٤٠٦ هـ / ١٤–٢٠ ديسمبر ١٩٨٥م.

"أيهم أقرب"..؟!

أنا، أم الذين ترجون..؟

أنا، أم الذين تدعون..؟

أنا، أم الذين ترهبون، وتخافون..؟

أنا، أم الذين تعبدون..؟

أنا، أم الذين تخشونهم كخشيتي، وتسونني وإياهم.. وتسخطونني برضاهم..؟!

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .. !!! [الأعراف : ٢٣] إن تساؤل الله هذا: ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ .. ؟؟ [الإسراء : ٥٧] ليزلزل ضمير كل من يتذكر أو يخشى..

وحين يتملاه أحدنا ويتدبره، فإنه لا محالة واجد نفسه كذلك الأعرابي الذي سمع قارئاً يتلو قوله سبحانه: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الذاريات : ٢٣] فإذا هو يصيح: يا ويلتا.. من أغضب الجبار حتى يقسم..؟!!! ثم يخر مغشياً عليه..!!

أيهم أقرب ..؟؟!!

الله.. أم الذين ندعو من دونه ..؟ حكاما وسادة ..

فراعين، وقوارين..؟!

بل حتى أبرارا، وقديسين..؟!

إنه لتعمى علينا السبل، فنضل عن طريق الله..

وتجتالنا الشياطين.. شياطين الإنس والجن.. التي تهوى بنا إلى قاع سحيق..!!

الملك لمن..؟ والعزة لمن..؟ والمقادير كلها بيد من..؟

ومن بيده ملكوت كل شيء، وإليه ترجعون..؟!!

أإله مع الله..؟ سبحانه وحاشاه..!!

أعاجز هو عما يقدر عليه غيره؟!

ومن هذا الغير، حتى يلتمس الحمقى منه، ما الله عاجز عنه..؟!!

كم يثير قوله تعالى: "أيهم أقرب" من المعاني الجياشة، والتفجع الموجع..!!

بيد أن بعضنا يفهم الآية فهما قاصراً.. يتعارض مع آية أخرى كريمة وعظيمة هي: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ ..!! [مريم: ٩٦] فأولئك يفسرون هذا التودد للمؤمنين الصالحين.. التودد الذي يسكنه الودود المجيد قلوب عباده ثواباً منه وجزاء وفاقا لمن آمن وعمل صالحا..

البعض يريد أن يفسر هذا بأنه الشرك الأصغر!!

لقد نصح الرسول: "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه أن يلح في البحث عن عبد صالح من اليمن، اسمه "أويس القرني" قائلا له: إذا لقيته، فاسأله أن يدعو لك فإنه مستجاب الدعوة ..

وظل "عمر" وهو أمير للمؤمنين يتفحص القوافل الآتية من اليمن في موسم الحج عاما بعد عام.. حتى جمعه الله بضالته المنشودة "أويس القرني" وظفر منه بدعوات صالحات..!!

إن للمؤمنين عند الله منازل يسعد من يقترب منهم ومنها – أحياء، وأمواتا – بفيض مما منحهم الله سبحانه وتعالى من نور، وبركة، وأسرار.

وإن التفريط لباطل.. وإن الإفراط لباطل أيضاً...!

والإيغال في الأمر، كالإيغال في النهي – كلاهما بعيد عن مسلك الأمة المقتصدة، كما وصفها الحكيم العليم..

أيهم أقرب ..؟!!

اللهم إنك وحدك الأقرب والأقدر. والأكبر..

فارزقنا حبك.. وحب من يحبك.. وحب العمل الذي يبلغنا حبك .. آمين.

كم هم جاهلون أولئك الحاسدون...!!

فيم يتناحر الناس ويتباغضون ويقتتلون..؟!

ولماذا يجري كل منا وراء ما ليس له بحق ..؟!

ولماذا بدلا من أن نشكر الله على ما أتانا من نعمة، نذهب فنحسد الناس على ما أتاهم الله من فضله ..؟!

لماذا لا نقنع بما في أيدينا ونرضى، ونطمع فيما في أيدي الآخرين حتى حين يكون الذي معنا كثيراً.. والذي معهم قليلاً..؟!

ولماذا نقول للدنيا: ما أجملك حراماً.. وما أقبحك حلالا..؟!!!

(*) المسلمون، العدد السابع والأربعون ١٦-٢٢ ربيع الأخر ١٤٠٦ هـ/ ٢٨ ديسمبر ١٩٨٥ – ٣ يناير ١٩٨٦م.

إن شر ما يصاب به إنسان من آفات الحياة الدنيا وآثامها، هو الحسد هو الذي يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب..!! والذي يرفضه كل دين وكل عقل ذكي، وكل قلب سليم.. والذي هو نار الحاسد وجنة المحسود..!! ذلك أن الحاسد يكتوي بنار أحقاده ويعيش أسير رغبته المسعورة في أن يرى محسودة وقد تعرى من نعم الله عليه متمنياً زوالها ورحيلها وما هي بزائلة ولا راحلة.. بل هي دائماً في مزيد ...!!

جاء في الأثر أن الله – سبحانه وتعالى – يقول: " **الحاسد عدو نعمتي.. متسخط لقضائي.. غير راض بقسمتي بين عبادي** "..!!

إن الحاسد ينتحر انتحارا بطيئاً.. ويعيش حياته تحت وطأة مشاعره الملتهبة الباغضة..!!

وما صدق إبليس قط إلا في هذه العبارة التي يقال إنه أهداها لسيدنا "نوح" عليه السلام قائلاً: " **إياك والحسد، فإنه صيرني إلى ما أنا فيه من مقت وطرد وهوان** "....!!!

أجل.. كان الحسد هو الذي أجهز على الشيطان، حين قال: "أنا خير منه".. وحين نقم على أبينا آدم إذ حباه الله بنعمته، واصطفاه لخلافته.. وكان الحسد أيضاً هو الذي حرم مشركي قريش من نعمة الايمان حين قالوا:- ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [الزخرف : ٣١]

وحين قالوا استخفافاً بشأن السابقين إلى الإسلام : ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ [الأنعام : ٥٣] ..؟!

وحقاً إن حب الدنيا رأس كل خطيئة..

فما تموج به من إغراء المال، والمنصب، والجاه – هو الذي يغري ضعاف الإيمان وصغار النفوس بالحقد الذي لا يضرون به إلا أنفسهم المثقلة بهموم الحسد والشنآن..!!

إن تمنى زوال نعمة الغير جهل مبين ولأنه كذلك، تضيق الدنيا في عين الحاسد، ولا يراها إلا حشوداً لجبة من المتزاحمين، لأن الدنيا ضيقة، والجهل أكثر ضيقاً..!!

أما العارفون بالله: فإن المعرفة تريهم الحياة بحاراً واسعة، تتسع لكل المبحرين، والسباحين.. ثم إنهم لا يتحاسدون على عفن الدنيا وبقاياها: لأنها بكل ما فيها لا تستحق منهم أن يكترثوا بها.. ولأنهم سمعوا نبيهم الصادق الأمين عليه صلاة الله وسلامه يقول :- **"لا حسد إلا في اثنتين: رجل أتاه الله عز وجل القرآن : فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار.. ورجل أتاه الله مالا: فهو ينفقه في الحق آناء الليل وآناء النهار..."**

هنا يكون الحسد.. والرسول عليه الصلاة والسلام يسميه حسداً من باب المقابلة والمجاز.. وهو يعني به التنافس في الخير، الذي قال الله سبحانه عنه : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين: ٨٣] .

وهنا يتحول الحسد الشريف، والتنافس العادل إلى "غبطة" للروح و"إيناس" للفؤاد..!!

لكن الحسد إفراز شائع. وهو من آفات النفس البشرية وطبيعتها.. ويكاد يشترك فيه أكثر الناس.

أجل – هذا حق.. ولقد لحظه رسولنا الكريم أعظم خبير بخفايا الأنفس وغرائز الإنسان، وأذكى معلم وأستاذ في فن التفوق على الضعف الإنساني أنى يكون..

من أجل ذلك يحدثنا عليه السلام فيقول :-" ثلاث لا ينجو منهن أحد.. الظن، والطيرة، والحسد.. وسأحدثكم عن المخرج من ذلك..

"إذا ظننت، فلا تحقق. وإذا تطيرت، فامض.. وإذا حسدت، فلا تبغ.. أي أن واجبنا أن نقمع شهواتنا الخبيثة والضالة..

وقمع الحسد يكون بإبطال مفعوله.. أي ألا نرتب عليه أي تصرف فيه أذى للمحسود.

ولعل من وسائل هذا القمع، أن نكثر من الدعاء للمحسود..

هنالك يتقامأ الشيطان ويخزى..

وإذا كان الرسول عليه السلام قد حدثنا عن الثلاثة التي لا ينجو منها أحد، فلعله عليه السلام يقصد بهذا الأحد فريقاً خاصاً من الناس – وإن يك كثيراً..

هؤلاء هم ضعاف الإيمان .. صغار النفوس .. وضعاف العقول أيضاً..

نسأل الله لأنفسنا ولغيرنا سكينة النفس وغبطة الرضا واليقين.

* * *

أحسنوا الظن بالله[1]

قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى بثلاثة أيام، أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بهذه الوصاة الحميدة:- **"لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل"**..

ومن أولى منه ﷺ بأن يدع لأصحابه ولأمته في الساعات الأخيرة من حياته البارة الرحيمة، مثل هذه الكلمات الحانية..؟؟

ألم يرسله فاطر السماوات والأرض رحمة للعالمين..؟

وهل ثمة رحمة تضع عن النفس البشرية آصارها وأوزارها، مثل هذه الرحمة التي تملأ القلب سكينة وطمأنينة، حين يفعمه الرجاء في الله، وحسن الظن بالله..؟؟

هذه العبودية العليمة الذكية التي ألهمت نفوسهم تقواها.. وعرفتهم بالله معرفة وثقت إيمانهم بجوده، مثلما وثقته من قبل بوجوده.. !!

(*) المسلون العدد الواحد والخمسون ١٥-٢١ جادى الأولى ١٤٠٦ هـ/ ٢٥-٣١ يناير ١٩٨٦م

وهكذا أحسنوا الظن به سبحانه، دون أن يغرهم به الغرور..

ما أروع أن يجد المؤمن هذه العلاقة الحميمة بينه وبني خالقه ومنشئه وربه الذي آثره على ملائكته المقربين ليكون الخليفة في الأرض.. والذي يتقرب إليه ذراعا، إذا تقرب العبد إليه شبرا.. ويتقرب إليه باعا، إذا تقرب إليه ذراعا.. والذي يقبل إليه هرولة، إذا جاءه العبد يمشي!!

والذي ينادي العبد من عليائه:- **" يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي.. يا ابن أدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك.. يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة"**...

هذا الحب الودود المتبادل بين الله وعباده، هو أقصى ما يطمح إليه المؤمنون: لأنهم عنده يجدون الله.. ويجدون أنفسهم .. وتصبح الدنيا بكل إغرائها وعطائها أدنى قدرا، وأحط شأنا من أن يقايضوا عليها بلمحة من هذا الحب، وخفقة من ذلك الود...!!!

وهؤلاء القوم أتاهم الله الحكمة، فهم يعرفون كيف يقيمون الوزن بالقسط وكيف يعيشون أيقاظاً بين ما يرجونه من رحمة، وما يحاذرونه من عقاب..

إذا تلوت عليهم قول الله سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ .. [يوسف : ٨٧] تلوا عليك قوله عز وجل : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ .. [الأعراف : ٩٩] والعكس بالعكس..

وإذا سألت بعضهم، أين الله..؟ أجابوك : بالمرصاد..!!

وإذا سألت آخرين نفس السؤال، أجابوك: حيث تحتاجه وترجوه ...!! لقد استقام الميزان بأيديهم، و﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ ، تحتل في روعهم نفس المكان الذي تحتله ﴿ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ ..!! [آل عمران : ١٠٦] و ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأعراف : ١٦٧]

تتكافأ وتتماثل مع ﴿ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .. [الأنعام : ١٦٥] و ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ [الانفطار : ١٣] تكتمل في وجدانهم بـ ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : ١٤] .

وبعبارة واحدة، فهم قد حفظوا وصف الله للمؤمنين حين قال سبحانه: ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء : ٥٧] .

وصدقوا رسولهم عليه الصلاة وأزكى السلام حين قال:

- **"لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع بجنته أحد.. ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من جنته أحد"...!!**

- وقوله صلى الله عليه وسلم: **«الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله.. والنار مثل ذلك"...!!**

- وحين وجدوا أنفسهم بهذا القرب من الجنة قطعوا المسافة القريبة بينهم وبينها وثبا.. وأحلوا أنفسهم مقام الرجاء.. وعاشوا هناك بين روحه وريحانه.. وخمائله وأفنانه..!!

ولكن أين هؤلاء من مكر الله الذي قال عنه الصديق الأكبر "أبوبكر" رضى الله عنه:- «لا آمن لمكر الله، ولو كانت إحدى قدمي في الجنة»...؟!

إن بصائرهم لا تغفو ولا تزيغ عن مكر الله.. تماما كما قال الصديق رضي الله عنه..

بيد أنهم وقد أحلهم الله مقام الرجاء، فإنه لا يسلبهم نعمة أعطاهم إياها: ما داموا لم يبدلوا نعمة الله كفرا.. ومكر الله الذي يخشونه، والذي حاذره سيدنا أبوبكر رضي الله عنه، ليس إحباط الله أعمالهم، ولا بخسهم ما كانوا يعملون..

إنما معناه في وعيهم، أن يتخلى الله عنهم .. وأن يكلهم إلى أنفسهم، وإلى حولهم وقوتهم.. فيتجمدون عند درجة، يريدون أن يجاوزوها إلى درجات، ودرجات.. ومن ثم فأصدق أوصافهم أنهم لا يخافون "مكر" الله.. بل يخافون "من" مكر الله.

ولهذا قال الصديق أبوبكر رضي الله عنه "لا آمن لمكر الله.. ولم يقل: "لا آمن مكر الله"..!!

فمكر الله بعيد عن الذين يحملون مثل إيمان أبي بكر ويقينه، ولكن بعضا من هذا المكر المتمثل في امتحان العبد هو الذي يحاذره الصديق ويخشاه..

وكما سأل المسيح عليه السلام ربه من قبل قائلاً: " لا تدخلنا في تجربة".. فكذلك يقول العارفون بالله تعالى..

إن الذي كان يحاذره "الصديق" رضي الله عنه، هو أن يدخله الله في تجربة، وأن يضعه موضع الامتحان..!!

وبعد فان الرجاء واحة المؤمن وجنته وفردوسه.

ومن تدثر بالرجاء، فإنه يحيا آمنا.. ويموت آمنا.. ويبعث تحت مظلة الرجاء والعطاء.

* * *

واجعلنا للمتقين إمامًا

من عباد الله المخلصين، هؤلاء الأبرار الذين وصفهم الله سبحانه بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ .. [الفرقان : ٧٤] إنهم يطمحون إلى شأو بعيد، فهم لا يقفون عند رجاء الظفر بالتقوى، وأخذ مكانهم العالي بين المتقين.. إنما يحلقون عاليا فيسألون الله ذا الفضل العظيم أن يجعلهم للمتقين إماما..!!

وما أعظم منزلة الذين يمنحهم الله هذا العطاء، فيصبحون ممن قال - عز وجل - فيهم :- ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ ..!! [السجدة : ٢٤] إن الإنسان العظيم حقا، هو الذي تشكل حياته طريقاً عاماً للأجيال..

وهو بهذه المثابة يكون رائداً.. وقائداً.. وإماما..

من أجل ذلك غرف الله لهم من المثوبة بيمينه - وكلتا يديه يمين - وأعطاهم بغير حساب..

(*) المسلمون، العدد الثاني والخمسون ٢٢-٢٨ جماى الأولى ١٤٠٦ هـ/ ١-٧ فبراير ١٩٨٦م.

وحسبهم وعده لهم بأن من سن منهم سنة حسنة: فله أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.. !! انظروا.. أجر من عمل بها إلى يوم القيامة ..

أي جزاء..؟ وأي عطاء..؟ وأي ثناء..؟!

ولنطالع معا هذا الحديث الكريم

عن أبي عمرو، جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال:

"كنا في صدر النهار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه قوم عراة، مجتابى النهار أو العباء، متقلدى السيوف عامتهم من مضر.. بل كلهم من مضر.. فتمعر وجه الرسول – أي تغير – لما رأى بهم من الفاقة. فدخل، ثم خرج، فأمر بلالا فأذن وأقام، وصلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم خطب فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ ﴾ [النساء : ١] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ .. [الحشر : ١٨] تصدق رجل من ديناره.. من درهمه .. من ثوبه .. من صاع بره.. من صاع تمره .. حتى قال: ولو بشق تمره.. فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها.. بل قد عجزت.. ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل كأنه مذهبه.. ثم قال: - «من سن في الاسلام سنة حسنة: فله أجرها، وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء..!! ومن سن في الاسلام سنة سيئة: كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».. صدق رسول الله.

إن ما يفيض به الحديث من بهاء وضياء حبب إلى أن أنقله بطوله..

وإن بدايته كنهايته في تبيان ما نحن بسبيله..

فرسول الله ﷺ يحب لأمته أن تكون أمة رائدة..

وبالتالي، فهو يجب لكل مسلم قوى أن يكون في الحياة رائداً.. والريادة تتحقق بكل خير مبتكر، يحمل الآخرين على اتباعه والتأسي به.. بل وكل خير مألوف. يكون فعله وإتيانه تذكيراً للناس به، وحضاً لهم عليه..

والانسان المسلم الذي يحيل حياته بفضائلها وبجلالها إلى طريق للأجيال يستحث إلى الخير والحق خطاها، يكون قد حقق لنفسه "الريادة" التي تجعله "معلما" من معالم الرشد الديني والإنساني.

. حين تصبح حياة المؤمن قدوة للآخرين، بفضائلها من صدق، وأمانة، وتواضع، وتعفف، وإخلاص لله، وشجاعة في الحق، ونزاهة في الحكم - يكون قد تقلد منصبه الرفيع بين الأبرار ومع الأطهار..

عندما كان الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - يودع الإمام "عليا" كرم الله وجهه، وهو في طريقه إلى خيبر .. أوصاه قائلا:- **"أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم.. ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه .. فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحداً، خير لك من حمر النعم"...!!**

هذه رسالة المسلم، وهذا دوره المجيد.. أن يستثمر نعم الله عليه من علم، أو مال، أو خبرة، أو جاه، في بسط هذه النعم وهذه المنح، حتى ينتفع بها الآخرون.. فبمثل هذا ولمثل هذا جعلنا الله ذو الفضل العظيم" خير أمة، أخرجت للناس"..

نعم لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً.. ولأن ينفع الله بك رجلا واحداً.. ولأن يستر الله بك رجلاً واحداً.. ولأن يعافى الله بك رجلاً واحداً.. ولأن يعلم الله بك رجلا واحداً.. ولأن يغيث الله بك مكروباً واحداً. ولأن يغني الله بك محروماً واحداً.. خير لك وأبر بك من الدنيا، وما فيها.. فاستبقوا الخيرات !!!

* * *

لمن هذا العطاء وهذا الهناء ؟!!

ثقة المؤمن بربه واطمئنانه إليه خير ما يكتسبه من تدينه ودينه.. ذلك أن هذه الثقة وهذه الطمأنينة، تعنيان أن الإيمان قد استقر في أعماق الضمير. وصار يؤتي ثمره في كل حين..

وضعف الثقة بالله – سبحانه وتعالى – يعنى فيما يعني سوء التقدير لقدرته ولرحمته..

لأننا إذ نؤمن، وإذ نعلم علم اليقين أنه على كل شيء قدير، وأن رحمته وسعت كل شيء، وأنه أحاط بكل شيء علما، فإن ثقتنا به ورجاءنا فيه، سيبلغان أعلى مستويات الثقة والرجاء..

ولعل الحديث القدسي القائل: "أنا عند ظن عبدي بي.. إن ظن خيرا فله .. وإن ظن غير ذلك، فله.." أقول:" لعل هذا الحديث يؤكد هذه الحقيقة، ويبرز نصوعها..!!

ولقد كان صادقاً وحاذقاً ذلك الحكيم الذي قال:- « إن لله عباداً – إذا أرادوا ..أراد" وهو بداهة لا يعني أن إرادة الله تجيء تبعاً لإرادة هؤلاء العباد، إنما يعني أن ثقتهم بالله، وبأنهم من الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه.. تجاوز بهم كل الاحتمالات البشرية

(*) المسلمون ٢٨ فبراير سنة ١٩٨٦م

القاصرة، ومن ثم يصبحون من الذين عناهم الحديث القدسي: "عبدي أطعني.. أجعلك عبداً ربانياً.. تقول للشيء كن، فيكون.."!!!

والثقة المطلقة في الكبير المتعال - جل جلاله - لا تكون إلا حيث توجد القلوب السليمة والقويمة وإلا حيث يوجد الإيمان السديد والرشيد..

وهي مطلوبة من المؤمن في كل آفاق تعامله مع الله سبحانه.. ولنذكر في هذا المقام قول رسولنا - عليه الصلاة والسلام - :" **لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت.. اللهم ارحمني إن شئت.. ولكن ليعزم المسألة، فإن الله لا مكره له..**"!!!

وفي حديث آخر يقول سيدنا وإمامنا - عليه السلام - فيما يرويه "أنس" رضي الله عنه: "إذا دعا أحدكم، فليعزم المسألة، ولا يقولن: اللهم إن شئت فأعطني، فإن الله لا مستكره له"..!!

أرأيتم..؟؟

إنه حتى في الدعاء.. بل في صيغته وكلماته .. يجب ألا تتأرجح ثقتنا بالله وألا يهتز يقيننا ولو بدافع الأدب مع الله الماثل في قولنا. إن شئت..!!

بل إلى مدى أبعد من هذا يذهب الرسول الكريم، وذلك حين ينهانا قائلاً:- "**لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان..ولكن قولوا: ما شاء الله ثم ما شاء فلان**"..!! وأحسب أن هناك رواية أخرى للحديث تقول :"**ولكن قولوا : ما شاء الله وحده**"...

وفي كلتا الروايتين يريد الرسول صلى الله عليه وعلى أهل بيته وصحبه وسلم، أن تكون ثقتنا بالحي القيوم عميقة الجذور، مالئة الصدور.. متجردة، متبتلة.. لا تتلفت وراءها.. ولا عن أيمانها وشمائلها، باحثة عن ملاذ آخر أو معين..

أتعرفون، أو تذكرون نبأ ذلك الأعرابي الذي سمع تاليا للقرآن العظيم يتلو قول الله - سبحانه : ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذرايات : ٢٣] .. فإذا به يقع مغشيا عليه، وهو يصيح: يا عجبا.. من أغضب الجبار حتى يقسم ؟؟!!

لقد أفاق ذلك الأعرابي الحكيم الورع من غشيته بعد حين.. ترى هل كان سيفيق أبدا،

لو رأى مبلغ ثقة المسلمين اليوم بربهم الحميد المجيد..؟!

على الأقل، كانت غشيته أو غيبوبته ستطول ثم تطول.. حين يبصر ثقتنا بالعلى القدير، وقد تهاوت تحت الصفر "!!" وأخذ مكانها ولاء رخيص للبشر.. ولأسوأ أنواع البشر، وأكثرهم كيدا للإسلام وشعوبه وأوطانه..!!!

لا أريد أن أخرج بالموضوع إلى المستوى الجماعي، حتى لا تثار مواجعنا، وفواجعنا.. ولأن بقاءه في المستوى الفردي، ربما يكون أهدى وأنفع.. فقد يجمع الله بهذه الكلمات أفرادا من عباده يسارعون إلى مرضاته.. ويضاعفون من ثقتهم به، وإخباتهم له، وتوكلهم عليه..

فلهؤلاء أقول مرة أخرى: «إن لله عباداً – إذا أرادوا .. أراد»..!!

الله أكبر .. والحمد لواهب النعم !!!

ولم لا يكون لهؤلاء العباد كل هذا العطاء ..؟!

ألم يبلغنا رسولنا قول ربنا في الحديث القدسي المضيء: ".. **كنت سمعه الذي يسمع به.. وبصره الذي يبصر به.. ويده التي يبطش بها..**" ؟!

ثم قوله سبحانه في نفس الحديث: "ولئن استعاذني لأعيذنه، ولئن سألنى لأعطينه" ؟!!

لمن هذا العطاء وهذا الهناء..؟؟

إنه لمن وصفهم سبحانه بأنه حبيبهم، وأنهم أحبابه..

فيا من تطالعون هذه الكلمات، انهضوا إلى رحاب الله التي ليس كمثلها رحاب.. وتعاونوا على البر والتقوى.. وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر.. وجددوا ايمانكم بالله.. واستزيدوا بغير حساب من الثقة المطلقة به.. والتوكل الذكي عليه.. واسعوا – في غير يأس أو استكثار – لتبلغوا هذه المنزلة العالية.

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.. لأن الواحد منكم سيكون "أمة" وحده.. ولأن توجهاتكم الطاهرة إلى الودود المجيد، والكبير القدير، ستكون أقرب إلى سمع الله من سمعكم إليكم..!!

وإنما ورثوا العلم ! !

دعاه ربه سبحانه إلى الإلحاح عليه بهذا الدعاء الجليل ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

ومنذ تلقي هذه الآية الكريمة ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] أدرك فوق إدراك، ما للعلم من قيمة وحتمية وكرامة..!!

فقال عليه الصلاة والسلام "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق. ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويعلمها.."

وضرب مثلا ذكيا وجامعاً وفريداً فقال"- "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضا، فكانت منها طائفة طيبة، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ، والعشب والكثير.. وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها، وسقوا، وزرعوا.. وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ.

«فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم ..

«ومثل من لم يرفع بذلك رأساً.. ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»..!!

(*) المسلمون ١٥ مارس ١٩٨٦م

ولقد ماز الله الحكيم الخبير بين من يعلم ومن يجهل فقال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ؟! [الزمر: ٩] ثم قال سبحانه وكأنه يجيب على السؤال: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ .. [المجادلة : ١١] ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ ...!! [فاطر : ٢٨] .

ولكن أي علم هذا الذي زكاه ذو الجلال والإكرام ودعا إليه..؟

أي علم هذا الذي قال عنه الرسول :- «**من سلك طريقاً يلتمس فيه علما، سهل الله له به طريقا إلى الجنة**»..؟؟ انه علم الدنيا والآخرة.. علم الحياة وعلم الدين.. إذ ليس من المعقول أن يعيش المسلمون عالة على غيرهم وسط المتغيرات الدائمة، والتطور المتساوق، دون أن يكون لهم – على الأقل – إسهام في عمارة الحياة..!! وإن ديننا العظيم ليهتف بنا صباح مساء: لا تستوى الظلمات والنور؟؟!!

لابد أن يكون العلم الذي ندعى إليه هو علم "المعمل" مع علم "المسجد"..

ولابد أن يكون طريق الأمة المسلمة . في كل عصر ودهر إلى الحضارة التي تحقق وفرة الحياة وجمالها وثراءها هو الطريق الذي تحف به قيم الإسلام وفضائله ورؤاه..

وإن المسلم "مرابط" أبداً. بحكم مسئولياته تجاه دينه وتجاه دنياه..

مرابط في حراسة نبيلة وجليلة لحضارة الروح التي أشع الإسلام أضواءها.. ولحضارة المادة والعلم التي رفع لواءها. ما جعل آباءنا الأقدمين في الأندلس، وقبلها، وبعدها.. يبلغون الذرى السامقة في حضارة العلم ، مما لا يزال يبهر الذين درسوا هذه الحضارة من علماء أوربا والغرب جميعاً..!!!

العالم المسلم إذن "مرابط" ومجاهد في سبيل الله.. وكلما حنى جبهته العالية على مختبر أو مخترع، فكأنه يحنيها في سجود العابد الأواب..

يقول رسولنا – عليه صلاة ربنا وسلامه : «**من خرج في طلب العلم، كان في سبيل الله حتى يرجع**»..

ويقول: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**».. بل يقول – وما أروع ما يقول: «**من سلك طريقا يبتغي فيه علما، سهل الله له طريقاً إلى الجنة.. وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع.. وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء.. وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما.. وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ "وافر"..!!**

وإذا كان العلم بنوعيه: علم الدين، وعلم الحياة، يمثل الصعود إلى الدرجات العلى، في الدنيا والآخرة فإن الجهل هو أقرب الطرق إلى التخلف والانحطاط. وصدق الشاعر الذي قال:

وفي الجهل – قبل الموت – موت لأهله

وأجسامهم قبل القبور قبور

وأرواحهم في وحشة من جسومهم

فليس لهم حتى النشور نشور

يقول الله – عز وجل –: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾..؟! [الأنعام: ١٢٢] أهناك حفز لهمة المسلم نحو العلم بكل مفاهيمه ودلالاته ومجالاته، مثل هذه الآية الكريمة التي تجعل الجهل ظلمة، وتجعل العلم حياة ونورا..؟

إذن، فما بالنا نرى بعض المسلمين المعاصرين.. بل ما بال خيرة من شبابهم يضلون ويضللون ويخدعون في دينهم، فيسفهون العلم.

ما بالهم يفهمون روح الإسلام ورسالته ومنهجه فهما سقيما وظلوما..؟!

وما بال بعض دعاتهم المزعومين يصبون في عقولهم غباءهم وجهلهم، وسوء ما

يقصدون ويأفكون..؟!

هل الإسلام الذي علم أبناءه كل ما في حضارة العالم اليوم من خير وتقدم، هو الذي يطفئ أبناؤه أنوار العلم والحضارة..؟

أجل – لقد صدق الرسول المعلم العظيم حين قال منذراً ومحذراً: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس.. ولكن يقبض العلم بقبض العلماء.. حتى إذا لم يبق عالماء، اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم – فضلوا وأضلوا.."!!

وسلام على أنبياء الله الذين لم يورثوا ديناراً ولا درهما.. وإنما ورثوا العلم ..!!!

* * *

هذا ما وعدنا الله ورسوله . . . .

بين المؤمن وربه ميثاق ألا يخذله وألا يتخلى عنه وأن تظل يده عليه فلا يدعه يهلك مع الهالكين ....!!

- ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾
- ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [الحج : ٤٠] .
- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل : ١٢٨] .
- ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : ٣] .

«من مشى إلي شبرا ، مشيت إليه ذراعا .. ومن مشى إلي ذراعا مشيت إليه باعا ... ومن أتاني يمشي أتيته هرولة ..»

هذا الميثاق بين من بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير .. وبين من ليس له من الأمر شيء .. وإن يسلبه الذباب شيئا كان عن استنقاذه من العاجزين !! وبهذا الميثاق

(*) المسلمون ٢٢ مارس سنة ١٩٨٦.

الذى تفضل الله به يصبح العبد المؤمن من أقوى الأقوياء فهو يستمد القوة من مصدرها المفيض ومن نبعها الذى لا يغيض .. !! ألم يقل الله عز و جل فى الحديث القدسى **" كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها "!**

أيمكن أن يكون عاقلا ذلك الذى يضع الله فى يده كل هذه القوى الكبيرة والعطايا المذخورة ثم يعطيها ظهره ويذهب باحثا عن قوى تؤازرة وتنصره .. قوى من عبد ضعيف مثله لا يستطيع وآلاف الملايين معه أن يخلقوا ذبابا ، ولو اجتمعوا له ..

أهذا عاقل أم مخبول ؟...

وإذا قال فى بلاهة وكفران إننى أتطلع إلى ما وعدنا الله به فلا أجد منه شيئا إلا يكون أكثر جنونا وسفاهة ؟..

إن الله لأجل وأعظم من أن يضع يده فى أيد ملوثه نظف يدك ونظف قلبك وكن مؤمنا حقا تجد الله يسارع إليك ...

لقد كان بعض العارفين بالله إذا مسه سوء يقول لنفسه " ذنب عجلت عقوبته !! ويقول آخر : والله إنى لأفعل الذنب الصغير فأجده فى خلق زوجتى وحمارى " !!

وعندما قال أصحاب رسولنا الأكرام صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .. حين قالوا فى إحدى الغزوات " لن نغلب اليوم من قله .. أخذهم الله مؤاخذة ساخنة - ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ !! [التوبة : ٢٥] ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة : ٢٦] وحين قالوا فى غزوة أخرى أمام جيش المشركين اللجب الهادر يوم الأحزاب : ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ .. أنعم الله عليهم بنصره العظيم.. !! "

هؤلاء أصحاب أحب خلق الله إلى الله كان لهفواتهم جزاؤها السريع

أفنريد نحن يا من خطايانا بعدد أنفاسنا أن نقول لله : هات نصرك .. وهات فضلك ولا تنتظر منا طاعة ولا شكورا .. ؟؟

أولئك أصحاب سيدنا (محمد) : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ

فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤] فماذا نحن اليوم .. ؟ ألسنا نحسب كل صيحة علينا .. ؟ ألسنا نهرب من القوى إلى الضعيف .. ومن القادر إلى العاجز .. ومن أصدق القائلين .. وأوفى الواعدين إلى الكذبة الفجرة الغادرين .. ثم نتساءل : أين نصر الله ووعده ؟

إننا فى أحسن الافتراضات نصنع صنيع الطفل الذى يفك أجزاء الساعة وينثرها أمامه ثم يعجب لأن الساعة لا تدور .. !!

نسأل أين الله .. ؟؟

إنه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ونحن اليوم لا نتقى ، ولا نحسن كل أعمالنا – سياسية وغير سياسية ، رديئة، رخيصة ، أنانية، قد فسقت عن أمر ربها ..!!

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : «**يدخل الجنة أقوام، أفئدتهم مثل أفئدة الطير**»..

مثل أفئدة الطير فيم؟؟ في رقتها .. وفي يقينها بباريها ورازقها..

أما غلاظ القلوب من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ..

ومن الذين يعوذون بعدو الله وعدو أوطانهم وشعوبهم .. ويستعينون بهم علي قهر الشعوب التي امتطوا ظهورها في غفلة من الزمن، وضيعة من الحق، وظلام من الليل..

أما هؤلاء فقد كذبوا .. ونقضوا .. وخانوا .. فبأي وجه صفيق يطلبون من الله نصره، ووعده..؟

قد حرموا حتي من أن يقولوا: ﴿ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ ! [الأحزاب : ٢٢] حرموا حتي من هذا الثناء علي الله بما هو أهله ...، لأنهم حرموا أنفسهم الملتاثة من حرارة اليقين، ولم يعودوا أهلاً لتصديق الله وتصديق رسوله .. فحبطت أعمالهم، وساء مصيرهم، وساء معهم مصير أمتهم المسلمة ...

وباطل ما كانوا يعملون.

فاللهم عفوك، ونجدتك، وعافيتك وهداك .. يا رب العالمين.

ولا تعد عيناك عنهم..!!

لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء..!! هذا حق..

ولو كان تكريم الله لعباده في الدنيا يتمثل في بسطه الجسم والمال، وفي وجاهة المنظر، وأرستقراطية المنشأ والمحيا.. لوجدنا الكافرين والخطاة أكلح الناس وجوها.. وأقبحهم منظراً وأحطهم منشأ.. وأدناهم مكانة..!!

لكن الله – سبحانه وتعالى – يتعامل مع العباد بمقاييس أخرى، لا تمت إليها بصلة مقاييسنا المفرغة من كل محتوى عظيم..

ولقد علم الله رسوله الكريم هذه المعايير، ودعاه للأخذ بها، وتحكيمها في علاقاته بالناس.. إذ قال له في قرآنه العظيم: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾..!![الكهف: ٢٨]

(*) المسلمون ١٨ ابريل ١٩٨٦م

وإذ قال سبحانه له : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ..!! [الأنعام: ٥٢]

ووراء هاتين الآيتين الجليلتين، كانت هناك قصة...!!!

فذات يوم ذهب بعض وجهاء قريش من المشركين إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يرجونه أن يجعل لهم مجلساً خاصاً يستمعون فيه إليه، ويتحاورون فيه معه.. مترفعين عن أن يشاركهم في هذا المجلس، أو يشاركوا فيه فقراء مكة وضعفاءها وعبيدها...!!!

ومع أن قلب النبي وهواه كانا - دائماً - مع الفقراء والمستضعفين حتى إنه ليقول لأصحابه: "**ابغوني في ضعفائكم فإنكم إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم**"..

أقول: على الرغم من هذا: فإن حرصه على هداية الناس جميعاً وبخاصة أشراف قريش الذين كان إسلامهم سيوفر الكثير من المعاناة التي يلقاها، ويلقاها معه الرعيل الأول من المؤمنين، حرصه هذا حفزه إلى التفكير في إمكان تحقيق رغبة زعماء قريش - أن يجعل لهم يوماً، أو أياماً ينتظمهم فيها مجلس خاص بهم، لا يحضرهم الذين يأنفون من أن يجالسوهم من الفقراء والعبيد، أو الذين كانوا لهم عبيداً..

أي بأس في هذا..؟ ولاسيما إذا لم يلحق المستضعفين منه أي غضاضة، أو أي تصغيرلشأنهم..؟

هنالك، قال لهم الرسول - عليه صلاة ربنا وسلامه - "**ارجعوا غدا أنبئكم بما سيكون**"..

أين كان الله السميع البصير من هذا الحوار..،؟؟

لقد سمعه من فوق سبع سماواته..!!

ونزل جبريل الأمين من فوره بالآيات التي ذكرنا من قبل، معلنة أن قلامة ظفر واحد

من أولئك الذين أراد وجهاء قريش أن يستبعدوهم من مجلسهم مع الرسول، خير عند الله، وأقوم، وأفضل من رءوس وجهاء قريش جميعاً...!!

نزل الوحي حثيثاً وسريعاً يقول له : اقذف هؤلاء العتاة ورغبتهم المستعلية المتأففة إلى الأرض، وإلى التراب".. ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ ...!!

تباركت يا ذا الجلال والإكرام .. وسبحانك!!

ترى أين مكان فقراء المسلمين وضعفائهم اليوم..؟؟

أين مكانهم في مجتمعاتهم ؟؟!

إنهم المغبونون لا ينتصفون من ظالم.. ولا يفيقون من ضيم محرومون من حقهم في الاختيار، ومن حقهم في الرفض..!!

وإن فيهم لكثيرين وكثيرين من الذين قال عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم - «رب **أشعث أغبر مدفوع بالأبواب.. لو أقسم على الله لأبره**»...!!

بينما في الآخرين من قال عنهم الرسول الكريم :- "**إنه ليأتي الرجل السمين العظيم يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة**"..

وهو -طبعاً- لا يعني سمنة الجسم ولا عظمة الروح .. إنما يعني سمنة الغرور والخيلاء والبطش، كما يعني التعاظم الجافي والمتألي والمستكبر...!!

كما وضح - عليه السلام - هذا المعنى في حديثه الصحيح :- "**ألا أخبركم بأهل الجنة ..؟ كل ضعيف، متضعف، لو أقسم على الله لأبره.. ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل، جواظ، مستكبر**.."!!

والعتل، هو الغليظ النفس والطباع.. والجواظ هو الجموع المنوع، المختال.

* * *

شهر الإيثار

مدح الله سبحانه المتقين فقال : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ . [الحشر : ٩]

والإيثار منزله يبلغها المؤمن بسخاوة نفسه. وجود يده .. وهو قهر للشح الذي يفضي بالإنسان إلي البخل الذميم ..

يقول رسولنا عليه الصلاة وأزكي السلام – "إياكم والشح ..! **فإن الشح أهلك من كان قبلكم .. أمرهم بالبخل، فبخلوا .. وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ..**"!! قال علماؤنا: الشح هو الحرص علي ما لا تملك .. فإذا ملكته، بخلت به .. والشح يأمر بالبخل ويدعو إليه ويحرض عليه كما يستبين من حديث رسولنا الكريم بينما ضده ، وهو الجود يأمر بالسخاء ويدعو إليه، ويحض عليه.

والله جل جلاله، لم يرض لأحبابه المؤمنين إلا أعلي منازل السخاء وأسماها متمثلا ذلك في خلق "الإيثار"..!!

(*) المسلمون – العدد السابع والستون – ١٧ مايو ١٩٨٦ – ٩ رمضان ١٤٠٦.

والإيثار أن تعطي غيرك ما أنت إليه محتاج مؤثراً إياه علي نفسك .. وكذلك فعل "الأنصار" مع "المهاجرين" حتي أنعم الله عليهم بهذا الثناء الذي تتضاءل أمامه الدنيا بما فيها .. فقال سبحانه عنهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ !! [الحشر :٩]

ونقيض "الإيثار"، "الأثرة" .. وهي رذيلة مستهجنة بل مستقبحة لأنها تعبر عن الأنانية البغيضة والمقيتة التي لا تنطوى عليها جوانح مؤمن صادق الإيمان ..!!

يقول نبينا الأمين – عليه وعلي آله وصحبه صلاة ربنا وسلامه:- **"السخي قريب من الله .. قريب من الجنة .. قريب من الناس .." والبخيل بعيد من الله .. بعيد من الجنة .. بعيد من الناس"..!!**

والمؤمن دائما جواد، معطاء، صاحب إيثار

يجود بالنفس إذا ضن البخيل بها

والجود بالنفس أقصي غاية الجود

ولقد دخل أصحاب الرسول رحاب الجود من أوسع الأبواب فما كانوا يبخلون بمال أو جاه أو عافية ..!!

كل نفع للناس يجودون به .. ومن لم يكن معه شيء قط يجود به كان يفعل عجباً ..!!

واقرءوا هذا الحديث:

ذات يوم استشرق الرسول الكريم وجوه أصحابه الحافين حوله وقال: «أيعجز أحدكم أن يكون مثل «أبي ضمضم» ..؟

قال أصحابه وما شأن "أبي ضمضم" يا رسول الله ..؟»

قال: كان إذا أصبح كل يوم يدعو الله قائلا: **"اللهم إنه لا مال لي أتصدق به علي الناس وإني أشهدك أني قد تصدقت عليهم بعرضي فمن شتمني أو قذفني فهو في حل من أمري وإني عنه عاف وله مسامح ..!!**

إلي هذا المدي الجليل والنبيل كان شغف الصحابة الكرام بالجود وبالعطاء وبتقديم ما يملكون بل وما لا يملكون من الخير والبر للناس ..!!

ما يملكون تبذله أيديهم السخية..

وما لا يملكون تبذله نياتهم الرضية ..«وإنما الأعمال بالنيات»..

وجود المؤمن يجيء خالصا من شوائب الرياء والرغبة في الثناء"..

إن شأنه شأن كل ما يتقرب به المسلم إلي ربه .. ليس لله فيه شركاء من هوي ولا من نفس بل ولا من هاجس غير مرغوب !!

ذلك أن الله سبحانه وتعالي أغني الشركاء عن الشرك

ومن أضل ممن يحسب أنه يسعي إليه وهو ينبعي في هواه ..؟!

إنه كما يقول الشاعر:

مـــا بـــال عينـــك لا يقـــر قرارهـــا ... وإلام ظلـــك لا ينـــي متـــنقلا

فلســـوف تعلـــم أن ســـيرك لم يكـــن ... إلا إليـــك، إذا بلغـــت المنـــزلا

وها نحن أولاء يظلنا اليوم شهر كريم .. كان الرسول فيه أجود من الريح المرسلة..!!

وليكن جودنا في رمضان تدريباً لاستمرار الجود وتكوين عادته في غير رمضان..

إن كل ما نبذل من خير إنما نقدمه لأنفسنا، وسنجده عند الله يوم لا ينفع مال ولا بنون..

* * *

ضعف الطالب والمطلوب ! !

هل لغرور الإنسان نهاية .؟؟

لا إذا هو استسلم له، وأخذته العزة بالإثم وهوى إلى حضيض الأنانية المقيتة.

هنالك ينمو مع الأيام غروره، وتختل موازينه. وتسوء تقديراته وتصرفاته.

ولطالما حذرنا القرآن الكريم من الغرور، وهو يخبرنا دوما، ويذكرنا أبداً بنشأتنا الأولى من طين وبنشأتنا الثانية – من ماء مهين !!

وما أروعه وهو يضرب لنا هذا المثل فيقول : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ﴾ [الحج: ٧٣] . ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾

فاذا كان هذا شأن من نعظمهم إلى حد العبادة، فما بالك بالآخرين؟؟!!

وما أجمل وأفضل وأذكى إجابة سيدنا جعفر الصادق رضي الله عنه على سؤال الخليفة

(*) منبر الجمعة – السنة السادسة – العدد (٢٩٩) ٨ربيع الآخر ١٤١١ – ٢٦ أكتوبر ١٩٩٠

السياسي الكبير، وقد راحت ذبابة تراوغة وتزعجه، كلما هشها على مكان في وجهه، طارت لتسقط على مكان آخر.

هنالك سأل الإمام الصادق رضي الله عنه:

«لماذا خلق الله الذباب» ؟؟

فأجابه: «ليذل به الجبابرة».!!

صدق والله. ومن هنا ندرك المغزى العميق للآية الكريمة: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ .

وآفة الضالين من البشر ماثلة فيما ذكره القرآن العظيم: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ .

فالغرور يدفع الأشقياء من المصابين به إلى كل موبقة وبالتالي إلى الخسران المبين.

وكم هي رائعة هذه الحكمة التي يقولها أحد مفكري الغرب: "الغرور هبة يمنحها الله لصغار النفوس".

وهو إذ يعتبره "هبة" و "يمنحها الله" فإنه يستخدم هذه الكلمات وهذا التعبير للسخرية من المغرورين، والعبث بأقدارهم، ولذلك نعتهم بأنهم "صغار النفوس"!!

وإنك لتحار في تفكير كل مغرور !!

ما الذي يحمله على الغرور. وهو كما ورد في الأثر "أوله نطفة قذرة. وآخره جيفة قذرة وهو بين هذين، يحمل العذرة"!!!

أيحمله على الغرور سلطانه ؟؟ إن السلطان كثيرا ما يكون نكبة النكبات على صاحبه!!

أيحمله عليه ماله؟؟ إن المال عرض زائل هو اليوم بيده، وغدا بيد غيره. ثم انه فتنة شديدة الوبال ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ !! أيحمله عليه صحته وقوته ؟ فأين هو من مفاجآت الأمراض والعلل ؟

وما أصدق الصوفي الحكيم " زر بن حبيش" حين سأله عبدالملك بن مروان النصح، فقال له : " لا يطمعك يا أمير المؤمنين في طول الحياة ما ترى من صحتك، فأنت أعلم بنفسك وأذكر قول القائل:

إذا الرجال ولدت أولادها

وبليت من كبر أجسادها

وأخذت أسقامها بعودها

فذي زروع قد دنا حصادها

إن أنجع الوسائل لإيصاد الباب في وجه الشيطان ووساوسه - هو إيصاده في وجه الغرور والمعابثة..!!

والمؤمن حقا - هو من يعرف نفسه.

هو: المتواضع في غير هوان.

القوى في غير بغي.

التقي في غير هوى

السخي في غير رياء

وبكلمة واحدة - هو السوى في غير كُفور ولا غُرور.

* * *

لماذا الإلحاد والإيمان حق ؟!!

على الرغم من أن موجة الإيمان عالية، تحمل فوق ثَبَجِها الكثير من المؤمنين والمتدينين على اختلاف منازلهم ومشاربهم.

على الرغم من ذلك، فإن موجة الإلحاد عالية هي الأخرى، تحمل فوق ثبجها الكثير من المنكرين والملحدين.

وفي عصرنا هذا تتبنى الإلحاد وتحضُّ عليه منظمات كبرى ودول شاهقة، وتسري سمومه في أوصال ذويه مجرى الدم، ويجد فيه الكثيرون راحة من الضوابط التي يفرضها الإيمان على سلوك الإنسان، أو راحة من المعاناة الفكرية التي تجعل الإنسان حائراً صغيراً بين الإيمان واللا إيمان.

وفي رأيي أن الإلحاد موقف فكري بيد أنه يتسم بالإحباط والضلال.. وما دام موقفاً فكرياً حيث يعجز عقل الملحد عن إدراكِ وجود الله؛ فإن طريقة التفاهم معه ينبغي أن

تكون الحوار والمناقشة.. إنه منذ تبين الرشد من الغي صار الإكراه على الإيمان أمراً غير مرغوب فيه.

يقول الله سبحانه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ويقول مخاطباً رسوله عليه السلام. وكأنه يعاتبه: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ ؟![يونس: ٩٩]

إن الأمر يبدو سهلاً ويسيراً إذا كانت الخلافات بين المؤمن والمنكر ترجع إلى الرغبة الصادقة في الوصول إلى الحقيقة. لكنها تبدو عكس ذلك إذا كان الملحد يصدر في إلحاده عن عناد ومكابرة ورغبة مضحكة في تحدي الله العلي الكبير.

***

مع تقدم الكشف العلمي ظهرت أسئلة كثيرة عن الله. هل هو موجود؟ وكيف وجد؟ وحسب كثير من المتعلمين أن العلم سيحرض على الإيمان، وسيرفع راية الإلحاد عاليا لا سيما وهو يسأل بصوت مرتفع وبكلمات كبار إذا كان الله خلق الكون فمن خلق الله؟

ونسى هؤلاء أن الله ليس مادة؛ ومن ثم فمن غير المستطاع أن نصل إليه بالطرق المادية، كما أن من المؤكد الذي لا يتطرق إليه الشك أنه ليس هناك شيء مادي يستطيع أن يخلق نفسه. والذين يقولون إن الكون خلق نفسه، يصفون الكون بالألوهية، ومعنى ذلك أنهم يعترفون بوجود إله.

يقول عالم الطبيعة الكبير "جورج إيرل دافيز" في كتاب "الله يتجلى في عصر العلم":

«إنه كلما ارتقى وتقدم تطور المخلوقات، كان ذلك أشد دلالة على وجود خالق من وراء هذا الخلق.. وإن التطور الذي تكشف عنه العلوم في هذا الكون، هو ذاته شاهد على وجود الله، فمن جزيئات بسيطة ليس لها صورة معينة وليس بينها فراغ نشأت ملايين من الكواكب والنجوم والعوالم المختلفة لها صور معينة وأعمار محددة تخضع لقوانين ثابتة يعجز العقل البشري عن الإحاطة بمدى إبداعها، وقد حملت كل ذرة من ذرات هذا الكون، بل كل ما دون الذرة مما لا يدركه حس، ولا يتصور صغره وضآلته عقل قوانينها وسننها وما ينبغي لها أن تقوم به، أو تخضع له"»..

أجل - تلك من آيات ربنا الكبرى أن كل شيء في هذا الكون حتى ما هو دون الذرة قد أعطاه الله قانونه ومنهجه ووظيفته.

يقول القرآن الكريم : ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه: ٥٠] أي أعطى كل شيء قانونه وجعل له وظيفته ثم هدى وأعطاه المقدرة على تنفيذ هذا القانون وإنجاز تلك الوظيفة.

وفي رأيي أن قضية الإيمان ليست موضوع الدين وحده. بل هي كذلك موضوع العلم والفلسفة والفكر والفن. وموضوع الحياة كلها فجميع الكائنات العليا في هذا الكون الكبير، وبالتالي في كوكبنا الصغير تدفعها قوى باطنة إلى استشراف الغيب، وتتبع الخيوط التي تهدي إلى السر الأكبر. سر القوى الأعلى الذي خلق عالمنا الفذ، وألهمه سننه وقوانينه ونظامه المحكم الوثيق.

كل إنسان تناديه هذه الأسرار.. فمنا من يسير إليها متتبعاً خطا العلماء ومنا من يسير متتبعاً خطا المرسلين والأنبياء.

ليس معنى ذلك أن الإيمان في غنى عن الدين - بل معناه أن كل ما في عالمنا الإنساني من فكر وعقل وروح تهدي إلى الله وتدل عليه.

وإذا ضل إنسان طريقه فليس العيب ماثلاً في عدم وجود الأدلة الكافية بل العيب في المنظار الذي يبصر به الحقائق،وحين يضبط منظاره فإنه يصادف حينئذ الكثير من الوضوح.

ولطالما نادى الله سبحانه قوانا المفكرة لتصل إليه وتراه من خلال عظمته وقدرته المتبدين في الأرض وفي السماء يقول سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ .. ﴾ [الروم: ٩]

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ [يونس: ٣١]

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١]

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠] ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]

آيات كثيرة خاطب الله بها العقل ليهديه بها إليه، ويدله عليه وهذا يعني أن الإيمان تجربة قبل أن يكون إذعاناً، ونظر بالعقل قبل أن يكون تلقيًا بالشعور.

ومن أجل هذا ترك الله رسوله إبراهيم أبا الأنبياء يعاني بواكير التجربة وحده قبل أن يتلقى من الله وحيه. ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٦، ٧٩].

وهكذا كان يضع إبراهيم عليه السلام الفروض ثم يناقشها ويفحصها.

أي أنه سلك طريق العلم اليوم. إذ العلم يقوم على الفروض لأنها توجه العمليات التي تكشف عن الحقيقة..

والفروض – كما يقول جون ديوي – ليس هناك حدود لمداها ولا لعمقها. فمنها فروض ذات مجال محدود تكنيكي، ومنها فروض تبلغ من السَّعه اتساع الخبرة نفسها.

وقد يسأل سائل: كيف نصل إلى الله عن طريق العقل، والشك أول وسائل العقل وأدواته؟

والجواب: نعم والشك نفسه طريق الإيمان .. لقد سأل إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيي الموتى.. فسأله الله: أولم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي.

ويخبرنا الله سبحانه عن الأزمات النفسية العاتية التي كانت تلم بالرسل أنفسهم فيقول سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ بضم الكاف وكسر الذال – [يوسف: ١١٠]

ولقد شكا بعض أصحاب النبي ما يعتريهم من شكوك في وجود الله، فقال لهم الرسول مطمئناً: "هذا محض الإيمان".

أي قبل أن تقول الفلسفة: شك لتعرف، بقرون طويلة جعل الرسول الشك طريقاً إلى اليقين!!

***

ولكن كيف يأتي الإلحاد؟!

إن له خلفيات كثيرة تدفعه إلى إغراء النفس وإغوائها، من هذه الخلفيات والدوافع أننا تعودنا أن نسمع اسم الله مقروناً بالأمر والنهي.. فكل دعوة إلى فضائل يشق على النفس إتيانها، وإلى رذائل يشق على النفس تجنبها. إنما نبعت من الله. ونحن بني الإنسان نموج بالشهوات موجا، وكل قوة تحاول صدنا، والوقوف في وجه غرائزنا لا تقابل منا بالارتياح.

وما دمنا نفهم أن الله هو الذي وضع الشكائم لنا، فهو إذن المسئول عن التناقض الوبيل الذي نعانيه في علاقتنا بهذه الأخلاقيات فإذا استجبنا لها مزقتنا الشهوات المكبوته المهتاجة.

وإذا نكصنا عنها حطمنا عذاب الضمير والخوف من عذاب الله، ودحض هذه الخلفية يسير، فالأخلاق ليست وصية الدين وحده. بل إن الحياة الإنسانية منذ وعت نفسها وهي توقن أن الاستمرار بلا أخلاق محال.

فهي – مثلا – لكي تنمو وتطرد لابد أن تمجد العدل وتضع الظلم،.. تمجد الأمانة،

وتسقط الخيانة .. تحترم الصدق وتمتهن الكذب .. وتقاوم القتل والسرقة والفاحشة.

والقانون الخلقي ضرورة الحياة الإنسانية. والكفر بالله لا يخلى من تبعات هذا القانون ومسئولياته.

وإنكار وجود الله لن ينجيك من العقاب الذي سينزله بك مجتمعك إذا خنت، أوسرقت، أو قتلت، أو انتهكت حرمة ثابتة.

من هذه الخلفيات أيضاً، ارتباط الإيمان بالدين. فالدين وإن لم يكن الصوت الأوحد الداعي إلى الله، إلا أنه أول الأصوات وأعلاها ولأن الدين قد تعرض لأزمات كُثْر، وتطفلت عليه كثرة هائلة من الأكاذيب والخرافات، فقد أصيب الإيمان معه. وصار كثيرون ممن يرفضون الدين يرفضون الإيمان أيضاً.

وهذا جهل بين وحَيْف عظيم، فالفلسفة، والفن، والعلم وكل تراث العقل الإنساني قد تقحّمه وتطفل عليه ما ليس منه. ولم يكن ذلك يعني إنكارنا لأهداف هذا التراث وغاياته وحقيقته!!

لقد سبق الدين إلى الهتاف بوجود الله ودعوة الناس إلى الإيمان به لكي يبلغوا بهذا الإيمان أعلى مستويات الخير ورفعة النفس ولكن كان هناك تطفل على الدين من الأكاذيب والأساطير، فإن هذا التطفل لم ينل من الدين إلا بعض أشكاله الخارجية. أما روح الدين فقد بقى زاهيا صافيا نقيا..

وروح الدين يتجلى في الإيمان بإله واحد، لا يحابى ولا يظلم .. وذلك يعني تحرير الإنسان وعقله من عبادة الآلهة المنحوتة والمصنوعة، كما يعني تحريره من أرباب الأرض الذين طالما ساموا الناس خسفاً ورهقا، وملأوا حياتهم فسادا وبغيا".

وروح الدين يتجلى في الهتاف بخلود الروح الذي هو أعظم تكريم للإنسان. إذ معنى هذا الخلود أن الإنسان ليس مخلوقاً عادياً، وأن الموت ليس فناء كليا له.. بل هو انتقال إلى عالم البقاء والخلود.

وروح الدين يتجلى في إعلان أن الإنسان مستخلف في الأرض إذ هو ارتفاع بالإنسان

إلى أعلى مقامات الخلق، وإرهاص بأن هذا الذي نفخ الله فيه من روحه سيذهب صاعداً حتى يبلغ في معراج الارتقاء ما لا يخطر ببال.

وروح الدين يتجلى في دعوة الإنسان إلى الإيمان بالغيب. إذ في هذا الإيمان تحطيم لقوى الحجر على المستقبل، وتشجيع الإنسان على اقتحام المجهول وكشف ما وراءه من أسرار.

ومن الخلفيات أيضاً زحف العلم وتفوقه. فكثير من الناس يظنون أن العلم قد ورث الدين ولم يعد للدين دور يؤديه وهذا جهل فاضح بقدر ما هو واضح، لأن العلم في مفهومه الحقيقي تزكية للدين وتفسير له.

ولنطالع إذا شئنا كتاب "العلم يدعو للإيمان" وهو لعالم يهودي شغلته قضية العلاقة بين العلم والدين فقال في هذه العلاقة رأياً حصيفاً.

وهناك واحد وثلاثون عالماً من كبار علماء أوربا قد التقوا في كتاب "الله يتجلى في عصر العلم" وأثبتوا جميعاً أن العلم ليس ضد الإيمان بل هو صديق له وزميل.

***

وبعد، فقد حدثنا عن الله كثيراً الأنبياء والمرسلون، وهم أناس عاشوا حياتهم في أعلى مستويات الصدق والخلق الرفيع لماذا نصدق الذين يحدثوننا عن القوى النووية، ونحن لم نر شيئاً من أشيائها؟! ولماذا نصدق الذين يحدثوننا عن الأشعة "تحت الحمراء" ونؤمن بوجودها ونحن لم نرها؟!

لماذا نصدق الذين يقولون لنا : إن سرعة الضوء هي ١٨٦٠٠٠ ميلا في الثانية الواحدة ونحن لم نشترك في هذا القياس لماذا؟ ولماذا؟ ولماذا؟

قد يقول قائل إن الأمر مختلف لأنك تستطيع التأكد من هذه الحقائق إذا أخذت مكانك في أي معمل أو مرصد.

وهذا حق – بيد أننا نستطيع أيضاً أن نتأكد من صدق الذين يدعوننا إلى الله إن أخذنا مكاننا في معاملهم ومراصدهم.

ومعاملهم ومراصدهم من نوع آخر. نوع يستطيع كل إنسان أن يمتلكه إذا جلا روحه

وأيقظ كل قوى نفسه الفاضلة،واستخدم المناطق المخبوءة من عقله وبصيرته.

إن الإيمان الديني كالإيمان العلمي. كل منهما نوعان: إيمان رؤية .. وإيمان تصديق ..

فإيمان الرؤية في العلم، هو إيمان العلماء الذين اكتشفوا النظريات والحقائق بأنفسهم.

وإيمان التصديق في العلم، هو إيمان الملايين من البشر الذين لم يمارسوا التجربة بأنفسهم ولكنهم صدقوها لأنها تحمل دلائل التصديق.

كذلك إيمان الرؤية في الدين هو إيمان الأنبياء والمرسلين والهداة الذين عاينوا، وشاهدوا، وذاقوا..

وإيمان التصديق في الدين ، هو إيمان الكافّة.

فإذا صممت على أن يكون إيمانك الديني إيمان رؤية، فاصنع إذن مايجب عليك صنعه حين تريد أن يكون إيمانك بحقائق العلم إيمان رؤية.

مارس تجربة الإيمان والعبادة بنفسك وتبتَّل إليها بكل قلبك وروحك. وابذل جهودا مثابراً دءوبة، فسوف يتجلى لك الله كما تجلى لغيرك!!

إن آلاف العصور والأحقاب التي عاشتها البشرية فوق هذه الأرض قد شهدت حنيناً دائباً من الناس، وتطلعاً مستمراً إلى الله وفي كل فرد منا – إلا من شذ وأبق – نزوع يذكرنا بأن لنا خالقاً وبارئاً ومُنشئاً.

أولا يدل هذا النزوع على شيء؟ ألا يدل تصميم الخلق منذ وجدوا على أن هناك قوة عليا، عليهم أن يبحثوا عنها ويشدوا رحالهم إليها – ألا يدل ذلك على شيء؟!

سيقال: لقد ظل الناس مذ وجدوا مصممين على أن الأرض مركز الكون حتى جاء يوم تخلوا فيه عن زعمهم وتصميمهم.

أجل.. ولكنهم تخلوا عن زعمهم القديم لأن العلم قدم لهم يقيناً عرفوا به حقيقة وضع الأرض .. فهل قدم العلم يقيناً مماثلاً ينفي وجود الله..؟!

كلا .. بل إن العلم كلما أمعن في فتوحاته إزداد انبهاراً وازداد تواضعاً، وازداد إيماناً بأن ما يجلهه أكثر مما يعلمه، وأن الأسرار الكبرى التي تتكشف له أكبر من أن تكون تلقائية النشأة عفوية المسير..

وبعض العلماء الذين تعجلوا الرأي وافتاتُوا على الحق لم يزيدوا على أن أخذوا كل الصفات المنسوبة لله، ونسبوها للمادة ..!!

فلماذا يسهل عليهم – وهم يرفضون الصدفة كمحرك للكون أن يؤمنوا بمادة علمية حكيمة قادرة، ويصعب عليهم الإيمان بإله عليم حكيم قدير..؟!

***

إننا لا ندرك مجال الحياة وسموها إلا في تلك الأوقات التي نحس فيها أننا مسيطرون تماماً على أنفسنا، وحياتنا، ومصايرنا.

ومن عجب أن لا شيء يتيح لنا ذلك مثلما يتيحه الإيمان بالله وفق المفهوم الصحيح لهذا الإيمان وإذ فقد الإيمان بالله ليدل – أول ما يدل – على فقدان الاستنارة والفهم، وفقدان استقامة التفكير والضمير.

* * *

وقفة مع الفكر الديني

عندما ظهرت أحداث التطرف الديني، وفاجأت العالم الإسلامي مبتدئة بغزو المسجد الحرام واحتلاله من جماعة متطرفة..

أقول: منذ ظهر هذا التطرف في مناسباته المختلفة والمفكرون المسلمون – على قلتهم – يضربون أخماساً في أسداس مذهولين واجمين. بعضهم راض قرير العين، وإن كان يخفى رضاه وراء قناع من التساؤل والدهش والانزعاج.. وبعضهم ينكره إنكاراً حقا ويحاول تمحيص واستشراف أبعاده.

غير أنه كان من الواضح لكل من يقف، وينظر، ويسمع أن جوهر الأزمة والمشكلة ماثل في عجز الفكر الديني عن القيام بمسئوليته عن تجديد نفسه.

لقد ملأ الفكر الإسلامي ذات يوم أرض الإسلام خصوبة وهيأها للعطاء العظيم

وحتى في العصور والحقب التي كان الاستبداد السياسي يحكم البلاد والعباد، لم يتوقف هذا الفكر عن العطاء – وكان الاجتهاد وما يتسدعيه من اختلاف في الرأي يملأ حياة المجتمع الإسلامي توهجا وذكاء ونورا..!!

وفجأة وقف الفكر الإسلامي وتجمَّد، وسدت الغوغائية أمامه المسالك، ومضى الفكر يتملق الغوغاء، ويخاف من الجهر بالحقيقة. والنصف الثاني من القرن العشرين يعطينا البرهان على صدق ما نقول..

كان هناك قلة من العلماء والمفكرين خرجت على السائد المألوف. أرادت أن تؤدي واجبها في تجديد الفكر الديني. بيد أن جهادها وجهودها كادا، أو هما قد ضاعا فعلا في خضم الزبد الراغي والموج المزبد المهتاج.

واليوم يزداد الفكر الديني جموداً ولا مبالاة ويقف أمام التفسيرات الخاطئة للدين موقف الأرنب التي تقف مذهولة أمام الأفعى!! وقد تولد هذه الاستكانة شعوراً بمرح اليائس ورضا الخانع لكنها في نهاية الأمر تدفع بالفكر الديني كله إلى الهوة التي يخيل إليه أنه يبتعد عنها !!

والمجتمع الإسلامي الذي كان من واجب الفكر الديني المتجدد أن يقوده تأخذ الحيرة بتلابيبه، ولا يدري ﴿ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ ..!! [الجن:١٠]

ولكن أين الرشد إذا كان الفكر الذي هو وسيلته وسبيله قد تاه في الظلمات ؟!

يقولون: إن باب الاجتهاد مغلق، ومن ثم فلا سبيل لكي يجدد الفكر الديني نفسه.. متى أغلق هذا الباب، ومن الذي أغلقه؟.. إنها إحدى الطرائف والفكاهات !!

فباب الاجتهاد في الإسلام مفتوح منذ نزلت آية : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق:١] إلى يومنا هذا .. وإلى الغد وإلى الأبد..!!

ولابد للفكر الإسلامي حتى لا يأسَن من أن يجدد نفسه ويقهر كل عوامل الركود والتخلف.

إن هناك عادات تفشت في المجتمع الإسلامي حتى صارت طبيعة ثابتة له.

من هذه العادات كراهية الذكاء!!

إن كثرة هائلة من العلماء يخافون ذكاء أقرانهم ويحاربونه.

ويؤلبون عليهم العامة إذا اكتشفوا للفكر الديني طرائق جدداً.

ولا تصاب أمة في حاضرها وفي مستقبلها بمثل ما تصاب به نتيجة مقاومتها الذكاء فيها.

وهذه آفة تجتاح كثيراً من المجتمعات البشرية التي لا تشجع هذا الذكاء إلا حين يكون طريقها إلى الرفاهية، أو إلى المزيد من فزعات الموت والحرب والدمار!!

ومن ثم هي تحاربه إذا أن ينفخ في الدين روح الحياة بما يصطنع من وسائل حرة لتجديد الفكر الديني وترشيده.

بيد أن هذه الآفة - محاربة الذكاء - لها في المجتمع الإسلامي طابع الشره والحسد والافتيات..

إذا كان بعض علماء أوربا في العصر القديم قد سبقوا إلى السجون والمقاصل لمحاولتهم تفسير الدين بالعلم، فقد انتهى ذلك اليوم، وحل بديلا عنه رعاية الجهود التي تتوخى هذه الغاية وتشجيعها.. لكن في مجتمعنا الإسلامي لا تزال الأحكام بالكفر تطارد الأحياء بل والأموات إذا حاولوا أن يخرجوا الإسلام العظيم من التقوقع الذي يريده له الجاهلون.

أنا لا أعالج هنا قضية التطرف، ولو كنت أعالجها لوجب أن نضع في حسابنا روح العصر الذي نعيشه، فالتطرف يغطى وجه الأرض.. واختطاف الطائرات والأفراد نظير فدية يفرضها المختطفون أقرب دليل على هذا... والأعمال الجنونية والإجرامية التي تقوم بها دولة إسرائيل دليل على أننا نعيش في عصر مخبول التطرف أبرز سماته.

يجب ألا ننسى أننا نعيش في عصر الذرَّة بكل ما يكتنفه من أهوال.. وهذا وحده كاف لأن يعيش الناس بغير عقول ما داموا يسمعون - مثلا - أعظم رواد هذا العصر "أينشتين" يقول: "إن إطلاق تيارات ضخمة من النشاط الإشعاعي قد يؤدي إلى إبادة الحياة كلها فوق الأرض"...!!

يجب أن تدخل روح هذا العصر التعس الذي يتخذ التطرف فيه شكلا وبائياً سواء من

الأفراد أو من الدول في حسابنا.

إن العواطف – كما يقول علماء النفس – مُعْدِية.. وما يحدث في أقصى الشمال مساء اليوم، ينتقل إلى أقصى الجنوب في صباح اليوم التالي.

فليكن ذلك في حساب الذين يعالجون مشكلة التطرف، ولنعد نحن إلى حديثنا عن الفكر الديني ووجوب تجديده وترشيده.

قلنا: إن كراهية الذكاء والحقد عليه يلعبان دوراً كبيراً وسيئاً في قمع الفكر الديني المتجدد.

يقول "برتراند رسل": "إن الخوف من الذكاء العام هو أحد الأخطار الكبرى في عصرنا الحاضر، وهو من الأمور التي يجب أن تعالجها المدارس والجامعات قبل غيرها.. فلو أن المعلمين والمسئولين في التربية كانوا أشد إدراكاً لنوع الشخص الذي يحتاج إليه العالم الحديث، لاستطاعوا خلال جيل واحد أن يكونوا الرأي الذي يقلب وجه الأرض. ولكن مثلهم الأعلى في الشخصية الإنسانية لا يزال عتيقاً؛ فهم أشد ما يكونون إعجاباً بالصفات التي تكسب صاحبها القيادة في عصابة لصوص"...!!!

إن ما ذكره "رسل" عن العواقب الوخيمة لاضطهاد الذكاء الإنساني في محاولة تكوين الرجل المثقف، هو تماماً ما يصادفنا أثناء اهتمامنا بتكوين الرجل المتدين.

المقود لا ينبغي أن يوضع في أيدي العامة أبداً. بل يجب أن يبقى ويظل في أيدي قادة الفكر الديني يجددون ويخلقون ويبدعون.

يجب أن تتواكب أهداف الدين مع أهداف الحياة، لأن كليهما الدين والحياة – حق – ولا يعارض حق نفسه أبداً.

وفي ظل هذه الحقيقة نستطيع أن ندرك ماذا نريد بتجديد الفكر الديني.

إن ارتفاع الإنسان من بداياته الغامضة إلى عظمته الماثلة، لا يمكن أن يتهدم وينتكس بقوة الدين ولا بتوجيهاته .. وإنما نحن الذين نريد ذلك بغبائنا!!

لأضرب لهذا مثلاً قريباً..

خذوا الطريقة التي يدعو بها الوعاظ والعلماء والمؤلفون إلى أخلاقيات الإسلام..

سنجد الاعتماد على النواهي الصارمة، والدعوة إلى إنكار الذات وإدانتها .. وكأن التدين والحياة الفاضلة لا يتحققان إلا بهذا الأسلوب من الإدانة والتحقير، وإلا بهذا القدر الرهيب من الرعب القاتل.

إن إدمان الإحساس بالذنب عمل غير صالح، ولا يمكن أن يكون طريقاً في حياة ناجحة.

وإن الإسلام مهما تكن الكوابح والزواجر التي يقاوم بها التسيُّب الخلقي، لا يدع هذه الكوابح وتلك الزواجر تعمل بمعزل عن رغبته الصادقة في تحرير الناس من الخوف.. لننظر مثلا قول الرسول صلى الله عليه وسلم :" **كل ابن آدم خطاء. وخير الخطائين التوابون**"..

وقوله: " **لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم آخرين يذنبون فيستغفرن فيغفر لهم**".

وقوله، وقد مر وأصحابه على أم تضم رضيعها إلى صدرها في حنان رطيب: « **أترون هذه طارحة ولدها في النار؟؟» قال أصحابه: كلا يا رسول الله ؛ فقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده، لله أرحم بعبده من هذه بولدها»!!**

ولننظر قول القرآن العظيم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ [النجم: ٣٢]

وقوله سبحانه : ﴿ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ يشير إلى المؤثرات البيولوجية التي تعمل فينا بوصفنا خلقا من تراب وطين"

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ يشير إلى قانون الوراثة الذي يعمل فينا عمله النافذ المهيمن.

يعجبني في هذا المقام حكمة قالها كاتب أوربي: "كل امرئ منا عربة كبيرة، يركبها جميع أسلافه" !!!

فهذه النصوص وكثير معها يستطيع الفكر الديني المتجدد أن يقود بها النفس البشرية قَوْدًا جميلا وديعا إلى مرفأ الفضيلة والخلاص

إن كثيرين من الوعاظ والعلماء يشعرون بغبطة طروب عندما يظنون أنهم أدوا واجبهم وحققوا السعادة لأنفسهم بإنزال الألم والحسرة بالآخرين.

ثم إننا بحاجة إلى طرق للتفكير تتلاءم مع تقدمنا العلمي – غير متزمتة متشككة في الفكر والعقل"

إنه لولا التجديد الهائل للتفكير الديني الذي اضطلع به فقهاء الإسلام الكبار وأئمته العظام لظل الإسلام يعيش داخل ثياب ضيقة، وآفاق مغلقة.

ويجب أن ندرك أننا بالحجر على الفكر الديني وعدم تجديده وترشيده إنما نحمل وزر معظم الملحدين والمتشككين الذين يعطون ظهورهم للدين.

يقول الفيلسوف الهندي "راد اكرشنان" "إن المثقفين في هذا العصر الحديث يلخصون الموقف في هذه العبارة: يعتقد بعض الناس أن الله موجود، ويعتقد بعضهم أنه غير موجود، والأمر لا يهمنا في كلتا الحالتين"!!!

يقول : " وكثيراً ما دل الشك وإنكار الله على أننا نمر بلحظة من لحظات الجدل في تاريخ الدين، وعلى أنهما – الشك والإنكار – من الوسائل التي استخدمها الإنسان ليستزيد من معرفته بالله، ويحرر نفسه من الآراء الدينية المعوجة"

فكم يسدي الفكر الديني للتائهين من صلاح ونور إذا هو عاش في واقع الحياة وأخذ بأيدي الحائرين، وقدم لهم جوهر الدين كما أراده الله هدى وجمالا للحياة ؟!

كم يعجبني دعاء الأوبنشاد الهندي:" اللهم أخرجني من غير الواقع إلى الواقع.. ومن الظلام إلى الضياء .. ومن الموت إلى الخلود"..

وعلينا أن ندرك أن العقائد التي تتحدى العلم إنما تتضمن في نفس الوقت ولنفس السبب إقرارها بالإفلاس .. بيد أنه لابد أيضاً من إدراك أن العلم ليس من حقه إصدار أحكام نهائية في قضايا وحقائق عالجها الدين، ولم يصل هو إلى كشفها بعد..

أجل، لا ينبغي أن نستبدل بكهنوت رجال الدين كهنوت رجال العلم، ولا ينبغي أن نضيع ثراءنا الروحي في سبيل قضايا لا يملك العلم دليلاً قاطعاً على نفيها.

وإن اتساع خبراتنا العلمية دون أن يقابل ذلك نمو في الحكمة الدينية دليل على تقهقرنا لا على تقدمنا.

وعلى المسلمين إذن أن يدركوا – قبل فوات الأوان – أنهم في حاجة شديدة وأكيدة إلى تجديد التفكير الديني وتقديم الإسلام في بهائه الواسعة الرحبة العظيمة.

وعلى مفكريهم أن يدركوا روح العصر بنفس القدر الذي يدركون به روح الدين.

ويقول الفيلسوف والشاعر المسلم "محمد إقبال" : "ليس أمامنا سوى أن نتناول المعرفة المعاصرة بروح الإجلال والاستقلال والبعد عن الهوى. وأن نقدر تعاليم الإسلام في ضوء هذه المعرفة. ولو أدى ذلك بنا إلى مخالفة المتقدمين"...

ويقول في نبوغ وضيء:" إن النبوة في الإسلام، لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى أنها النبوة نفسها".

أجل.. وهذا هو معنى أن "محمدا" خاتم الرسل، وأن الإسلام خاتم الأديان.

فليس بعد سيدنا "محمد"رسول، ولا بعد الإسلام دين "إنما هو الوحي والعقل.. الوحي الذي يتمثل في كلماته الخالدة، والعقل الذي يفتح سبلا جديدة للمعرفة في ميدان التجربة الدينية.

إننا نبحث عن عالم إسلامي جديد. ولابد لهذا العالم الجديد أن ينشأ وينهض.

وسبيلنا لذلك تجديد الفكر الديني. وتشجيع الملكات الإسلامية على الاجتهاد والإبداع، والكشف عن التخوم المشتركة بين روح الدين وروح العصر .

واللحظة التي ندرك فيها ذلك، هي اللحظة التي نجد فيها سعادتنا العظمى، ونجتاز بنجاح أكبر امتحان لنا.

لقد كانت حركة التجديد والترشيد للفكر الديني الخلاق أزهى ما تكون في صدر الإسلام.

وحسبنا أن نرى هذا الفكر الثاقب يجد الحرية التي يناقش بها أكثر القضايا إثارة للاهتمام

فمثلا نجد أعلى مناصب الدولة، وهي "الخلافة" موضوعا يغدو فيه الفكر ويروح.

فيرى أهل السنة أن إقامة رئيس لدولة الإسلام "الخليفة" واجب شرعا .. ويرى المعتزلة أنه واجب عقلا.. ويرى الأباضية وهي فرقة من الخوارج أنه غير واجب، لا شرعاً ولا عقلاً.. وأن المجتمع إذا استطاع تنظيم نفسه في مؤسسات تقوم بتوجيه حياته ورعاية مصالحه لم يعد للخلافة مكان ..!!

ومن عجب أن هذا الرأي هو الذي نادى به "ماركس" و "إنجلز" وعندما ذهبا إلى أن المجتمع البشري سيظل يتطور وينمو حتى يستغني عن الدولة وعن كل مظاهرها وينظم المجتمع نفسه في مؤسسات مدنية بعيدا عن كل مظاهر الدولة من حكومة وجيش وشرطة!!!

فماذا أصاب الفكر الديني في الإسلام حتى تبلد وجفت منابعه..؟!

هذا الفكر الذي اقتحم بجرأته النادرة وبأمله الباسل كل القضايا الدينية والدنيوية.

إن مستقبل الإسلام رهين بعودة هذا الفكر المتجدد المتحرر والجريء الوثّاب

وعندما يعود من غيبته وغربته سيشهد المسلمون يوم بزوغ فجرهم الجديد

* * *

الجنة تحت قدميها !!

أفسحوا الطريق للمرأة الأم.. إنها أجل ما خلق الله وأنعم .. إنها المصدر الذي لا ينضب للحياة المنتصرة.

كم هي عظيمة الأم؟ وكم هي صاحبة دور عظيم في هذه الحياة، إن العالم كله يحترمها ويكرمها. والأديان جميعاً تضعها فوق مناكب البشر رفيعة القدر متسامية المكانة.

ولكن هل كرمها دين أو فلسفة أو نظام كما كرمها الإسلام؟!

أشك كثيراً في أن يكون للإسلام نظير في تكريم الأم، لننظر قول الله سبحانه: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ ؟ [الأحقاف : ١٥]

إنها صورة للمعاناة النبيلة التي تعانيها الأم – كل أم – لكي تضمن للحياة الاستمرار.

هذه التي تحمل الجنين بكل مضايقاته حمل المحب المتيم المشغوف..!! وتعاني عند وضعه من الهول كله .. وقد تزهق روحها وتخسر حياتها لتستقبل الحياة وليد جديد ..

ثم تعاني إرضاعه وتنشئته في تبتل وحنان .. ويظل معبود قلبها. وقبلة روحها، وأغنيتها العذبة المغردة مهما لقيت منه من أذى وعقوق..

أجل – حتى العقوق لا ينقص من حبها له، وتدللها به، أهناك عطاء أنبل من هذا العطاء..؟ أهناك فداء أروع من هذا الفداء. ؟

ألا فلتعش الأم – كل أم – وليرسل الله على الأمهات سكينته ونعمه ورضوانه.

«الجنة تحت أقدام الأمهات»

هكذا يحدث الرسول عليه السلام وهو يوصى بالأم ويكشف عن جليل قدرها وعالى منزلتها عند الله.

فرضاء الأم في الإسلام جواز المرور إلى الفردوس الأعلى، وإلى رضوان الله الأكبر.

ومكانة الأمومة في الإسلام تحية موجهة للنساء جميعاً. فالمرأة آخر الأمر أم ولود.

وتكريم الأمومة تكريم للأنوثة لا يعادله تكريم !!

وإن من حق النساء أن يباهين الرجال ويفاخرنهم بأنهن اللائي لولاهن لانقرضت الحياة وانمحى وجود الإنسان "الأم" ما أعذب الكلمة وما أقدسها .. إنها المصدر الذي لا ينضب للحياة الزاحفة والمنتصرة، والسائرة إلى أمام ، وتكريم الإسلام لها أمر طبيعي بوصفه دينا منزلا من عند الله، خالق الأمهات.

ألا يعلم من خلق..؟؟ بلى. وإنه ليعلم قبل غيره ما للأم من مكانة وخطر وأثر.

لذلك علم رسوله عليه السلام أن يعلم أمته والعالمين جميعا بأن يحنوا الجباه للمرأة الأم، وينثروا تحت قدميها كل ما يملكون من حب وطاعة وولاء.

ولقد أحسن الرسول الوصاية بالأم، ولم يكن يدع فرصة تمر إلا ويذكر بحق الأم على البنين والبنات.

يحدثنا "أنس" رضى الله عنه أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتيه في الخروج للجهاد.. والجهاد كما نعلم ذروة الإسلام وسنامه. وهو لاسيما في عصر الرسول، والإسلام بين قوى الظلام والشر تتربص به في كل حين، كان من أكثر أركان الإسلام وفرائضه أهمية.

ولأمر ما، سأل الرسول ذلك الرجل: «**هل بقى من والديك أحد حي؟؟**»

قال : أمي ..

فإذا الرسول يقول له :« **قابل الله في برها، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد**»..!!

ويحدثنا صحابى آخر هو طلحة السلمى، يقول: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله: **إني أريد الجهاد في سبيل الله**..

ولأمر ما أيضا سأل الرسول ذلك الرجل: «**أمك حية؟؟**» قال: **نعم**

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**الزم رجليها، فثم الجنة**»..

ويحدثنا معاوية بن جاهمة أن أباه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : **يا رسول الله. أردت أن أغزو، وجئت أستشيرك، فقال الرسول: هل لك من أم؟؟ قال نعم.. قال.. فالزمها؛ فإن الجنة عند رجلها**"...

في هذه الأحاديث الصحاح ترى الرسول صلى الله عليه وسلم يؤثر على فريضة الجهاد فريضة معايشة الأم بالبر والخير مطمئناً أولئك الذين سيحرمون من لذة الجهاد والاستشهاد بأنهم لن يذهبوا بعيداً عن الجنة ما داموا بجوار أمهاتهم. بل ما دام مكانهم عند أقدامهن.

وتحضرني في هذه المناسبة قصة طريفة تقول : إن رجلين تلاحيا وتماريا حول حظهما من الجنة أو النار.. فحلف أحدهما بالطلاق ليدخلن الجنة وليأكلن من ثمارها.. ثم ندم على حلفه بالطلاق فيما لا يملك ولا يملكه أحد من البشر.. وراح يسأل ويستفتي حتى يجد له منفذا من مأزق دون جدوى..

وأخيراً هدته خطاه إلى رجل بسيط من عامة المسلمين فقص عليه نبأه

فسأله الرجل: هل أمك حية..؟ قال: نعم.. قال: فخذها إلى حديقة مثمرة واجلس عند قدميها وكل من تحت قدميها، فإن رسولنا صادق لا يكذب أبداً.. وقد قال: «الجنة تحت أقدام الأمهات»..

فإذا جلست عند قدميها فقد جلست في مكان من الجنة، وإذا طعمت من تحت قدميها فقد طعمت من ثمار الجنة..!!!

وهناك حديث للرسول لا ينسى في هذا المقام يرويه الشيخان البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضى الله عنهم أجمعين وهو خير وسام يقلده الأم نبي أو زعيم.

يقول الحديث: **جاء رجل إلى رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله.. من أحق الناس بحسن صحابتي..؟!**

قال الرسول: أمك !!

قال الرجل : ثم من ؟

قال الرسول: أمك !!

قال الرجل: ثم من ؟

قال الرسول : أمك !!

قال الرجل : ثم من؟

قال الرسول: أبوك..

ألا من كان يعرف في تكريم الأم نظيرا لهذا، فليأتنا به!!

على أن الرسول لا يمنح هذا التكريم للأم وحدها، بل يمنحه كذلك للخالة بوصفها أختاً للأم، لها مثل ما للأم من توقير وولاء

فيحدثنا ابن عمر رضى الله عنهما فيقول: أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل. فقال: إني أذنبت ذنباً عظيماً، فهل لي من توبة ..؟

فانظروا كيف كان جواب الرسول الحاني على الأم. المرتفع بها إلى سموات التوقير والتقدير..

قال للسائل: هل لك من أم ..؟؟

قال : لا

قال : فهل لك من خالة ؟؟

قال : نعم..

قال الرسول: عليك ببرها!!!

والبر بالأم لا ينتهي في الإسلام بانتهاء حياتها.. بل هو موصول ودائم في كل صور الوفاء لها..

فالصلاة عليها، والدعاء لها، والاستغفار لها، وإنفاذ عهدها من بعدها، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بها، وإكرام صديقاتها.

كل ذلك يأمر به الرسول وفاء للأم بعد موتها وولاء لذكراها العطرة الطيبة.

وهكذا منح الإسلام " الأم" أسمى آيات التبجيل، وجعلها بالنسبة لأولادها بل وللمجتمع كله الكعبة التي يُطاف حولها آناء الليل وأطراف النهار.

إنني عندما أردد كلمة "الأم" أجدها أعذب ترنيمة تنفرج عنها الشفاه..!!

* * *

وفد النساء !!

منذ مائة وعشرين عاماً تقريباً تقدمت فتاة أمريكية إلى غرفة التشريح والعمليات تحمل لأول مرة في تاريخ المرأة مبضع الجراحة.

تقدمت لتشهد كبير أطباء "روزنبرج" يومئذ وهو يقوم بتشريح جثة لرجل

وفغر الحاضرون من العلماء والأطباء أفواههم من الدهش والعجب، وارتسمت على وجوههم العابسة كل مظاهر المقت والاحتجاج

وجابهها كبير الأطباء بقوله:

ليس يجمل بامرأة أن تشهد تشريح جثة رجل !!

فأجابته من فورها إجابة مسكتة إذ قالت:

أي فارق بين أن تشهد امرأة تشريح جثة رجل، وأن يشهد رجل تشريح جثة امرأة..؟؟!!

وأراد كبير الأطباء هذا أن يمعن في إحراجها فقال: إن العلة التي قضت على المريض قد أصابت من أعضائه عورة ..

فأجابته: إن أعضاء الجسم كلها يجب أن تكون في عيني الطبيب سواء ..!!

وبهت الدكتور "بارز" والتوى لسانه الطويل تحت وطأة المنطق الصارم، والحجة الدامغة والبالغة

حدثت هذه الواقعة والمجتمع الغربي والأوربي على أبواب حضارته، يسارع إليها وإلى التمدن بخطى واسعة بارعة. وإني لأتذكر هذه القصة التي وقعت من مائة وعشرين عاماً لا غير .. وأعود بذاكرتي إلى أكثر من اثنى عشر قرناً، فأرى المرأة المسلمة كانت تبارى الرجال أحياناً في معظم مجالات الحياة، حيث كان من النساء المسلمات، العالمات، والطبيبات والمفتيات والزعيمات..

ولم يكن ذلك منهن بغيا على الإسلام ولا خروجا على مبادئه. فالإسلام منذ نزل في أيامه الباكرة وللمرأة في رحابه نصيب أو في من المكانة والتقدير والاعتبار.

إن المكانة التي تمتعت بها المرأة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم هي التي صبَّت في روافد الزمان ما استمتعت به المرأة المسلمة بعد ذلك من تقدير.

ولنرجع إلى عصر الوحي لنرى النساء يلقين من العناية كل ما يلقاه الرجال.

وأينا لا ينبهر حين يعلم أن أيام الوحي تلك شهدت ما كان يسمى بـ "وفد النساء"!!

شكل المسلمات هذا الوفد ليكون صلة بين الرسول وبينهن يحملن إليه حاجاتهن ويتلقين منه الإجابة عليها

وكان النساء قبل تشكيل هذا الوفد يذهبن إلى الرسول فرادى حاملات أسئلتهن، وعارضات آراءهن. وطبيعي أن تشكيل هذا الوفد جاء ثمرة لتشجيع الرسول الذي

حظى النساء في دينه وشريعته بكل تكريم.

ذهب هذا الوفد إلى الرسول عليه السلام نائبا عن المسلمات جميعاً يطلب حق النساء في العلم.

فقال نسوته وأعضاؤه: «يا رسول الله، غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوما ولهم يوما" فأجابهن الرسول لما طلبن.

وذهب الوفد مرة ثانية يقول: «يا رسول الله، نريد أن نخرج مع أزواجنا في الحروب نحمل جرحاهم، ونسقى ظمآهم» فأجابهن الرسول أيضا، وأمر بخروجهن مع الجيوش»

وذهب الوفد مرة ثالثة يقول: «يا رسول الله إن بُعولتنا يمنعوننا المساجد، فمرهم أن يخلوا سبيلنا» فنادى الرسول في الناس: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**»..

وذهب الوفد مرة رابعة، يقول:

«يا رسول الله، نريد أن نشهد الأعياد مع الرجال» فنادى ﷺ في جمع المسلمين: «**دعوا العوائق وذوات الخدور يشهدن العيد**»..

وذهب الوفد مرة خامسة يقول:

«يا رسول الله .. ما بال ربنا يذكر الرجال في القرآن ولا يذكرنا؟ فيبتسم الرسول. وفي اليوم التالي يدعوهن إلى سماع كلمات الله وآياته:

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ !! [الأحزاب : ٣٥]

وتوالى غدو الوفد ورواحه بين الرسول والنساء..

هكذا كان للمسلمات منذ ألف وأربعمائة عام "وفد" يناقش عن النساء ويطالب بحقوقهن.

وعبارة "وفد النساء" ليست من عندي. بل هي تسمية موجودة في كتب السيرة نقلا عن العصر النبوي – وهي تسمية على رقتها تثير كثيرا من العجب والإعجاب.

ولقد حدث هذا عندما كانت أوربا يغطيها الظلام. وكان سكانها يتساءلون هل المرأة قط أم إنسان.. بل وكان نساؤها من عهد غير بعيد يعتبرن نجسات، ولا يحل لهن أن يمسسن الكتاب المقدس أو يقتربن منه !!!

قبل ذلك بقرون، ومنذ ألف وأربعمائة عام كانت المرأة المسلمة تتفيأ ظلال دين كريم وضع عنها وزرها، وحولها من سلعة تورث، وموءودة توأد إلى سيدة كريمة محترمة ضمن سيدات كريمات محترمات قال عنهن الرسول الأعظم: **"إنما النساء شقائق الرجال – لهن مثل الذي عليهن بالمعروف"**.

وأيامئذ كان للنساء "وفد" يمثلهن لدى الرسول ويطالب لهن جميعاً بالمزيد من الحقوق.

وإن فقهنا الإسلامي ليزخر بما للمرأة من حق ومكانة .. فهو يعطيها كل الحقوق التي للرجل تقريباً في مجال الدين والدنيا والوظائف العامة التي لا يحرم عليها أيًا منها ..!!

ولقد آن للمجتمع المسلم في كل بلاد الإسلام أن يتخلص نهائياً من "عقدة المرأة" كما أن للمرأة المسلمة أن تتخلص من عقدة المودة والمدنية..

فالمدنية في الإسلام من أبهر وأزهى وأروع المدنيات، وإذا كان الإسلام يصون المسلمة ببعض التقاليد والواجبات فليس ذلك لكي يصيب شخصيتها بالإحباط. إنما لكي يحفظ لها حرمتها وكرامتها.

إن قوما من المسلمين يتزيدون في دينهم – فلا يرضيهم – مثلا – حكم الإسلام في أن

من حق المرأة أن تكشف وجهها وكفيها .. أو لا يرضيهم أن تستمتع بحقها في العمل — جميع العمل — الذي تصلح له كطبيبة ومعلمة ، ومهندسة وقاضية بل ووزيرة.

إن الإحساس الأخلاقي بالمرأة هو الذي يعكس في مجتمعاتنا ضيقنا بحقوقها وخوفنا من حريتها.

وعلينا أن ندرك جيدا أن وضع المرأة لا يصحح بقانون يصدر، أو ظفر يتحقق. بل لابد من أن نكنس من عقلنا الباطن كل شك في مقدرة المرأة. ولاسيما المرأة المسلمة التي نرسل الحديث عنها وإليها وعلينا ألا نظلم الإسلام حين نجعله حرباً على المرأة بينما هو في حقيقته كفيل لها، وحفي بها، وبارٌّ أكثر ما يكون البر. وصديق أكرم ما يكون الصديق.

* * *

تزودي بأناقة النفس

تحرص الفتيات والسيدات على إحراز أكبر قدر متاح من الأناقة.. أناقة الملبس وأناقة المظهر.. بل والرجال أيضاً يحرصون. بيد أن المرأة أشد حرصا وأكثر رغبة في أن تبدو متأنقة متألقة تبهر الأبصار..!! وليس في ذلك ما يشينها ما التزمت في زينتها بآداب دينها وتقاليد قومها.

لكن المرأة تغفل خلال اصطناعها للتأنق أناقة أخرى هي أبقى وأسمى من كل أناقة – تلك هي أناقة النفس والروح.

إن الله كما يقول الرسول عليه السلام جميل يحب الجمال .. وليس على الناس من بأس ذكراناً وإناثا، إذا هم حاولوا أن يظهروا في أعين الآخرين نوراً وضياء.

لقد سأل أحد الصحابة رسول الله ﷺ قائلا:

«يا رسول الله. إني أحب الثوب الجميل والنعل الجميل. أفمن الكبر ذلك؟؟ فأجابه الرسول: كلا إن الله جميل يحب الجمال، وإنما الكبر بطر الحق، وغمط الناس..»

فليتأنق المسلم وليتألق ما أخطأه اثنان - إسراف ، ومخيلة " وليذكر أولا وثانياً وأخيراً - أناقة النفس.

إن أناقة النفس فضيلة تنقص الأكثرين منا رجالاً ونساء.. بيد أن هذا النقص يبدو في المرأة أكثر ظهوراً، لأنها في العادة أكثر إشراقا. وفي الثوب الأبيض الجميل تبدو النقطة السوداء وكأنها نهر من مداد أو من سواد!!

إن أناقة النفس تمثل الشيء الكثير بالنسبة للنساء كافة وللمسلمة خاصة.

إن هذه الأناقة هي التي تجعل منها بهاء متألقا بنور السمو الروحي والخلق الكريم.

تجعل منها الفتاة المتسامية، والسيدة المترفعة المتعالية عن كل جهالة وصغار.

وأناقة النفس ليست لقطة نجدها على قارعة الطريق، ولا سلعة تباع في المتاجر والحوانيت، بل ولا رحيقاً نستحلبه من أثداء الأمهات..

بل هي ثمرة رياضة روحية، ودأب عقلي وأخلاقي

نعم: هي ثمرة استجابة واعية. تجعل من الرقة الوهنانة، إخلاصا حيا ونشاطاً خلاقا. كما تجعل من الثرثرة الفارغة معرفة نابضة، ومن الوجود المهمل حياة ممتلئة نافعة.. والسيدة التي تضيف إلى أناقة مظهرها أناقة المخبر، وتبلغ من الرقي النفسي والجلاء الروحي ما تهيؤه لها أناقة النفس هي التي يقال عنها: إنها تهز المهد بيمينها والعالم بيسراها..!! وتستطيع دون غيرها أن تلهم الحياة نبوغها وتقواها..

إن الوطن الإسلامي يرجو الأمهات المسلمات أن يهبنه مواطنين صالحين، يهبنه رجالا أبرارا يحملون جسارة الشجعان، ويمشون في سرائرهم وعلانيتهم على صراط الفضيلة والواجب.

فالفساد والتخلف اللذان تغشيان حياتنا اليوم، واللذان يهددانا بامتدادهما إلى الغد لن يضع عنا وزرهما سوى الإرادة المنبعثة من أنفس أنيقة نظيفة، مترفعة، تأنف الإسفاف، وتسمو فوق الصغار.

ولن تستطيع الأم المسلمة أن تعاون ولدها على إنهاض شخصيته، وترقية نفسه إلا إذا غرست فيه من طفولته الغضة الباكرة أناقة النفس وتسامي الضمير..

وإن السيدة المسلمة التي أوجه إليها الحديث أكثر من سواها لقادرة على أن تحمل نفسا أنيقة بمثل قدرتها على ارتداء الثوب الأنيق. ولن يتطلب الأمر منها مشقة ولا عسرا..

وحسبها لكي تظفر بأناقة النفس أن تؤمن بحتمية الظفر بها، إدراكاً منها بأن أناقة الروح هذه أدعى للإغراء المهيب والإجلال الودود من أناقة الثوب وبذر المساحيق.

إن الحياة قد ضاقت ذرعاً بعارضات الأزياء، ومضت تتلمس في المرأة الجديدة والفتاة الجديدة روعة الروح، وجلال الهدف، وأناقة النفس، واستقامة الطريق.

أعرف نساء كثيرات تحيط بالواحدة منهن هالة كاذبة من ضوء باهت مصنوع.

قد يسر منظرها الأعين بادئ الأمر، لكنها لا تكاد تتكلم وتحرك شفتيها المصبوغتين حتى تفضح نفسها، فإذا رأسها الذي كان يبدو فاتنا، جمجمة خرعة غبية، وإذا وراء صدرها الذي كان يبدو حانيا وودودا، قلب مفعم بالسوء، ممتلئ بالغرور.

وهكذا تنطفئ الهالة، ويرتد ضوؤها الشاحب ظلاماً في ظلام.

ذلك لأن روحها تهمل حتى تصير خابية لا تبرق بسنى ولا تتألق بضياء.

إن الأناقة الظاهرة المجلوبة لا تلبث أن تذبل وتذوب، لأنها ليست لها ينابيع ثرّة وباطنة تمدها برقراق الحياة والجمال.

وكل جمال لا يكون قادما من النفس ولا تمده عظمة باطنة، ولا يدفعه تيار الفضائل

الكامنة، فهو جمال هابط ساقط. يتلاشى كالهباء أمام النظرة الثاقبة والرؤية الفاحصة.

والوطن الذي يترهل بهذا الطراز من النساء يبتلى بشر ما يمزقه فالمرأة نصف المجتمع – وعليها أن تفكر كما يفكر الرجال، وتعمل مثلما يعملون، وتضرب في كل مناكب الحياة بعزم بصير وساعد قدير.. ولن يتأتى لها ذلك وهي مشغولة بزخرفها تاركة عقلها يموت من الجوع وروحها تلهث من الظمأ.

الإسلام اليوم بحاجة إلى الفتاة التي تعنى بعقلها أكثر مما تعنى بزينتها وجسمها . وترى فى حفيف أوراق كتاب تحمله وتطالعه جرسا أعذب وأنغم من وسوسة الحلى والذهب، وتشم من تراب الأرض التي تفلحها، ومن دخان المصانع التي تدير آلاتها عبيراً دونه كل العطور التي تملأ معاطسها.

لقد روى التاريخ عن السيدة فاطمة الزهراء بنت النبي عليه وآله وصحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم أنها كانت تملأ اللحظة العابرة من حياتها بالعمل والدأب. فكانت في وقت واحد، تدير الرحى بيدها، وتداعب مهد الحسين برجليها، وتتلوا القرآن بلسانها، وتفسره بقلبها، وتبكي بعينيها.. ولو أسعفها زمانها بأكثر من ذلك بوسائل الدأب والعمل والجد لأقبلت عليه في شجاعة وغبطة.

وللنساء جميعا قدوة حسنة في مدام كوري التي اقتعدت من التاريخ أعلى منائره حين آمنت بنفسها إيمان الأبرار.

وما كانت ستؤمن بها لو كانت نفسا مريضة، مظلمة، متهالكة على الزخرف الباطل والعبث الضائع.

لقد عكفت على تثقيف عقلها الذكي، وبناء نفسها الوثابة حتى صارت من أكثر العلماء وأعظم الرواد نفعا

واكتشفت للإنسانية المعذبة "الراديوم" وكانت رحمة للمعذبين.

ألا وإن بين فتياتنا المسلمات من لا ينقصن ذكاء ومقدرة ، وعلى المجتمع المسلم أن يهيئ لهن كل فرص التألق والنبوغ فهذا هو ما يريد الإسلام من بناته ونسائه.. يريد منهن رائدات نشيطات في كل ميادين المعرفة والخير والفضيلة.

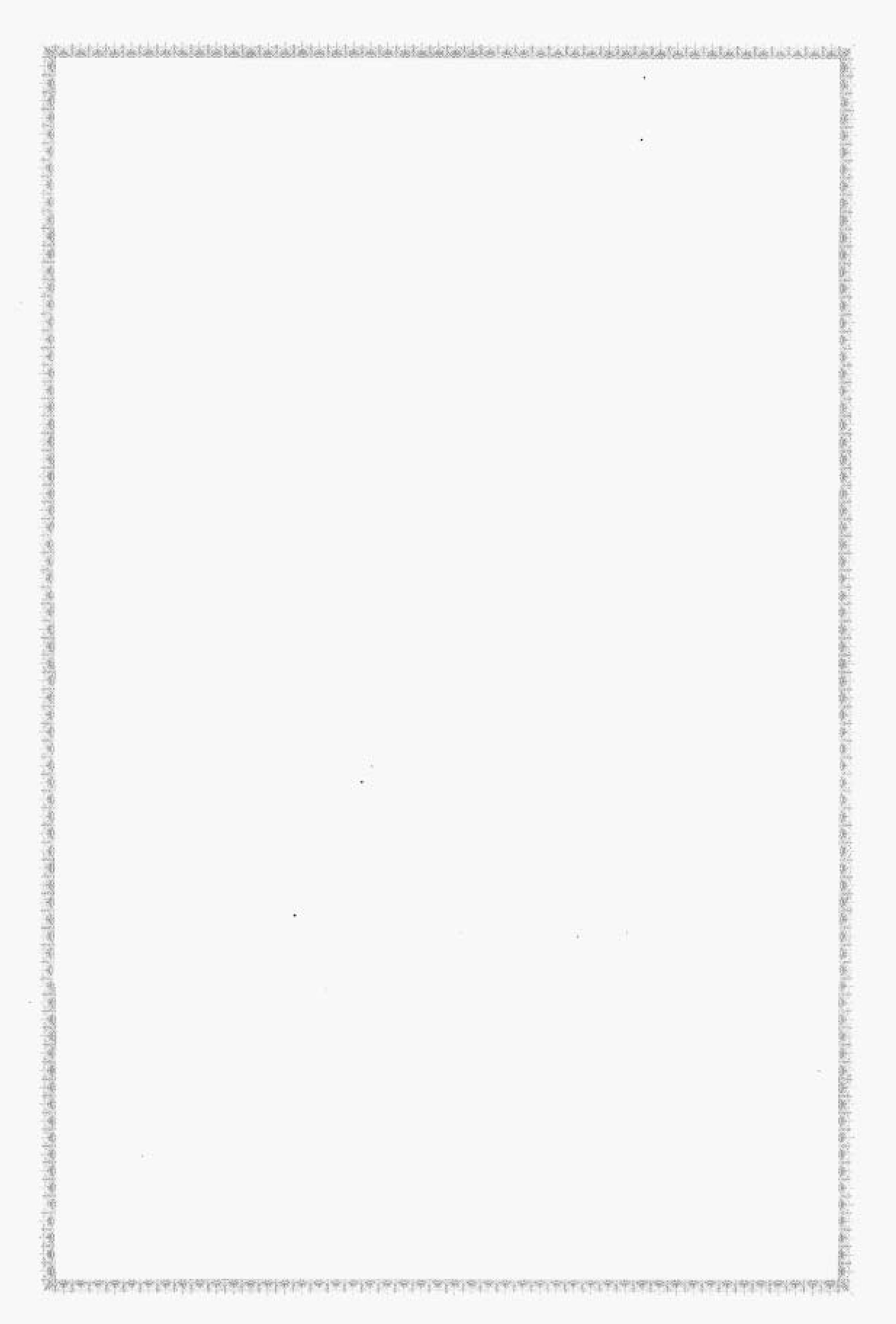
يريد منهن أن يضعن التواضع مكان التصنع .. والبساطة مكان التكلف.. والإيمان مكان الغرور .. والحماس مكان الترهل.. والعمل موضع اللهو.. والحب بديل الغيرة..

يريد منهن أن يقفن أمام أنفسهن ومستقبلهن أكثر مما يقفن أمام المرآة، وأن ينشدن الرفعة – رفعة النفس ورفعة الخلق فى كل ما يأتين ويَدَعْن، وأن يجعلن لحياتهن غرضاً سامياً وهدفاً نبيلاً إذا فعلت ذلك يا فتاتي ويا سيدتي، كنت الأم التي تخلق أمة..

وإذا لم تفعلي، فأنت مهما اصطنعت من زخرف وزينة حطام..

حطام يطفو فوق العباب...!!!

❊ ❊ ❊



الفهرس

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

تم بحمد الله وحسن توفيقه